رثاء النبى ﷺ عند شاعرات بيت النبوة وشواعر عصره

بقلم

د. وفاء أبو السعود

أستاذ الأدب والنقد المساعد

كلية الدراسات الإسلامية والعربية

للبنات بالإسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

رثاء النبى ﷺ عند شاعرات بيت النبوة وشواعر عصره

تقديم:

الرثاء من الموضوعات البارزة فى شعرنا العربى، وإذا طالما بكى شعراؤنا من رحلوا عن دنياهم وسبقوهم إلى الدار الآخرة، وقد عرف الحزن ورثاء الميت منذ وجد الإنسان، وإن اختلفت صوره بوسائل التعبير عن هذا الرثاء، وعلى كل فهو غرض شعرى عميق فى القدم، عرفه الإنسان منذ أن عرف المصير المحزن المحتوم، مصير الموت والفناء، الذى لابد أن يصير إليه كل حى، فيصبح أثراً بعد عين، وذكرى بعد حقيقة مشاهدة وملموسة.

والرثاء هو بكاء الميت، والتفجع عليه، وإظهار اللوعة لفراقه، والحزن لموته، وتعداد خلاله الكريمة، والإشادة بمناقبه وشمائله، وربما يفوق الرثاء كل فنون الشعر إذا كان صادراً عن قلب موجع، وعاطفة حارة وفؤاد مكلوم، ومن ثم فإن للعاطفة دوراً هاماً فى جودة شعر الرثاء وقوة التأثير فيه.

وقد عرف العرب الرثاء منذ العصر الجاهلى، إذ كان النساء والرجال جميعاً يندبون الموتى، ويقفون على قبورهم مؤبِّنين لهم مثنين على خصالهم، وقد يخلطون ذلك بالتفكير فى مأساة الحياة من بعدهم، وبيان عجز الإنسان وضعفه أمام الموت، وأن ذلك المصير المحتوم الذى لا مفر منه.

ولما كان الرثاء من نتاج العاطفة الشديدة والانفعال العميق، فقد حفل به ديوان شعرنا العربى، وانطلق فيه خيال الشعراء ضخماً مهولاً، وبرزت فيه الحقائق التاريخية متسربلة بلباس العاطفة الجياشة، فاشتدت فيه الأساليب

الكلامية والألفاظ والحروف، وتدفقت هدارة تنفس عن انفجارات النفوس، وحزن القلوب لكونها ترافق ضياع العزيز وفقد الحبيب.

ولم يقتصر فن الرثاء على الرجال، بل أسهم فيه النساء، وقد كان للنساء الحظ الأوفر من القيام عليه والشهرة فيه، إذ كانت المرأة تقوم على ندب الميت أياماً، وقد يمتد قيامها عليه سنوات، ومن هنا كان من الطبيعى أن يتفوق النساء على الرجال فى ندب الموتى والنواح عليهم، لأن المرأة أدق حساً وشعوراً، وأيضاً فإن حياة الرجال فى العصر الجاهلى كانت تقوم على المفاخرة بالشجاعة والجلد والبطولة، فكانوا يأنفون أن يقعدوا للبكاء وذرف الدموع كفعل النساء بل لقد ذهبوا يظهرون التجلد والصبر على من يموت منهم.

أما المرأة فقد كان وحى الرثاء عندها ما عرفت به من عاطفة صادقة، وضعف ظاهر، فإنها وإن كانت قد شاركت فى جميع أبواب الشعر إلا أنها قد حلقت فى فن الرثاء، وبرزت فيه، لأنه هو المجال الفسيح الذى تنطلق فيه عواطفها وكان عصر صدر الإسلام عصر التحول الأكبر للبشرية جمعاء من الشرك بالإله الخالق الحكيم إلى الإيمان به سبحانه وتعالى.

ويقيناً منى بأهمية هذا العصر، وأحقيته بالدراسة اتجهت لدراسة شعر الرثاء الذى اتصل برسول الله ﷺ . فحين فقد المسلمون رسول الله ﷺ، بكاه الشعراء، بكاه الرجال مثلما بكته النساء، وكان الشعر الذى قيل فيه حزن وجزع ووصف للفجيعة النازلة وحسرة على فقد النبى، وقد ظهر النفس الإسلامى فيه واضحاً جلياً، فالرثاء من الأغراض التى وضح فيها الطابع الإسلامى خير وضوح فرأينا فيه خصائص وسمات جد جديدة ولا عجب فالرثاء يتصل بحقيقة الموت التى هى جزء من أحداث الحياة والكون، بقدر

ما يكون العقل متطوراً والفكر متحضراً، نجد له سمات ليست نظرة الجاهلى الذى أن عرف أوائلها وأواخرها فقد جهل ما قبلها وما بعدها ففسرها تفسيراً جاهلياً. وقد كثر الرثاء فى هذا العصر، وبرزت فيه أنحاء جديرة بالبيان والإيضاح منها كثرة ما ورد رثاء للرسول عليه الصلاة والسلام، ومنها مشاركة المرأة فيه مشاركة فعالة، فقد كانت للمرأة عواطف حرى ومشاعر فياضة، وأشعار رثاء ثرة، ولقد جاوز ما قالته النساء وعشر قصائد فى رثاء النبى المصطفى، فى حين أن الشعر بعامة جاوز الثلاثين قصيدة ومقطوعة ومعنى هذه النسبة أن المرأة شاركت بقرابة ثلث شعر الرثاء، وتلك مسألة جديرة بالوقوف عندها ولهذا عندما كتبت عن رثاء النبى ﷺ أردت أن أخص شاعرات بيت النبوة بنصيب لأننى وجدت كثيراً من المصادر التاريخية – وكتب السيرة النبوية كتاريخ الطبرى، الكامل لابن الأثير، والبداية والنهاية لابن كثير، وسيرة ابن هشام، وغيرها من هذه المصادر لم تهتم بشعر النساء فى هذا الموضع وهذا شئ غريب من هؤلاء الأعلام الذين تحدثوا عن تاريخ الإسلام وسيرة النبى ﷺ، ومن هنا فقد كشفنا من خلال هذه الدراسة عن حب أهل الرسول له ﷺ، وقد تبين لنا أن أغلب رثاء الأهل له كان من نساء بيت عبد المطلب بن هاشم بالإضافة إلى ما نسب للسيدة فاطمة الزهراء من رثاء لأبيها عليه الصلاة والسلام، فقد رثته أروى بنت عبد المطلب، وعاتكة بنت عبد المطلب، وصفية بنت عبد المطلب، وهند بنت الحارث بن عبد المطلب رثاء رقيقاً كشف عن حب شديد وحزن عميق لفراق الرسول ﷺ كما كشف عن الأثر الجليل الذى خلف وفاته.

وقد تناولت من خلال هذا البحث رثاء الصحابيات للرسول ﷺ وقد اتسم شعرهن بشدة الحزن وعمق الأسى ورقة الشعور والإحساس بالفاجعة.

وقد ختمت البحث بعرض للظواهر الموضوعية والفنية لشعر الرثاء، وقد كان خطاب العين طلباً للبكاء أهم العلامات التى تميز مطالع المقطوعات التى رثت بها النساء النبى ﷺ سواء من بيت النبوة أم من الصحابيات فضلاً عن الإحساس بالخوف والهول بسبب وفاته عليه الصلاة والسلام، وما تركه رحيله من وحشة وظلمة من الدنيا فقد أوحشت الأرض وأوحشت بلاد الحرم، وأصبحت الحياة ثقيلة بعده، فظلمة موحشة كئيبة على نفوس الأهل والأصحاب وسائر المسلمين. لقد كانت أشد اللحظات إثارة للشجن تلك اللحظات التى عشتها مع شعر الرثاء الذى يعبر عن شعور نبيل وحزن شديد لفراق السراج المنير والهادى البشير.

وبعد فقد بذلت ما فى وسعى من بحث واستقصاء، وآمل أن أكون موفقة فيما رجوت ولله الحمد أولاً وآخراً.

موقف الإسلام من شعر الرثاء

فى القاموس المحيط رَثَيْت الميت رَثْيا ورِثاء ورثاية بكسرهما ومرثاة ومَرْثية ورثوته: بكيته وعددت محاسنه ونظمت فيه شعراً وحديثاً عنه ورثى له: رحمه ورقَّ له، وامرأة رثاءة ورثاية: نواحه(١). فالنائحة ترثى الميت تترحم عليه وتندبه، والندب كالرثاء بكاء الميت وتعديد محاسنه(٢) والتأبين الثناء على الشخص بعد موته(٣).والرثاء كما نعلم، غرض من أغراض الشعر الغنائى يعبر فيه عن تجربة الأسى والحزن والتفجع واللوعة لفقدان عزيز.

ومن المسلم به أن لكل أمة مراثيها الخاصة بها، والأمة العربية من الأمم التى تحتفظ بتراث ضخم من المراثى، وهى تأخذ عندها ألواناً ثلاثة هى: الندب، والتأبين، والعزاء.

أما الندب: فهو بكاء الأهل والأقارب والأصحاب حين يعصف بهم الموت، فيئن الشاعر، ويتفجع إذ يشعر بضربة قوية تصوب إلى قلبه، فقد أصابه القدر فى ابنه، أو فى أبيه أو أخيه، وهو يترنح للإصابة ترنح الذبيح، فيبكى بالدموع الغزار، وينظم الأشعار، يبث فيها لوعة قلبه وحرقته التى تمزق الأحشاء، وقد ينظر فيرى الموت مطلاً نصب عينيه، وهو ينحدر راغماً إلى حفرته، لا ناصر له ولا معين، ويصيح ولا ينفعه صياحه، فغم الهاوية ويقترب منه، ويوشك أن يلتقمه، فيبكى ويلحن بكاءه على قيثارة شعره، تلحيناً مشجياً،

(١) القاموس المحيط مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادى، ج٤، ص ٣٣٤، طبعة الحلبى بمصر.

(٢) المصدر نفسه، ج١، ص ١٣٦.

(٣) المصدر نفسه، ج٤، ص ١٩٦.

كله آلام وحسرات، والشاعر لا يندب نفسه وأهله فحسب، بل يندب أيضاً من ينزلون منه منزلة النفس والأهل ممن يحبهم ويؤثرهم(١).

أما **التأبين**، فليس نواحاً ولا نشيجاً على هذا النحو، بل هو أدنى إلى الثناء منه إلى الحزن الخالص إذ يسقط نجم لامع ويأفل من سماء المجتمع، فيشيد به الشعراء منوهين بمنزلته، السياسية أو العلمية ... وكأنهم يريدون أن يصوروا خسارة الناس فيه، ومن هنا كان التأبين ضرباً من التعاطف والتعاون الاجتماعى، فالشاعر لا يعبر فيه عن حزنه هو، وإنما يعبر عن حزن الجماعة وما فقدته فى هذا الفرد المهم من أفرادها، ولذلك يسجل فضائله ويلح فى هذا التسجيل، وكأنه يريد أن يحفرها فى ذاكرة التاريخ، حتى لا تنسى على مر الزمن.

والعزاء مرتبة عقلية فوق مرتبة التأبين، إذ نرى الشاعر ينفد من حادثة الموت الفردية التى هو بصددها إلى التفكير والتأمل فى حقيقة الموت والحياة وأن كائناً لن يخلد فيها وأن كل شئ فى هذه الدنيا إلى زوال ... وتلك هى ألوان الرثاء فى شعرنا العربى فى صورة موجزة.

ولقد حفل الشعر العربى على امتداد عصوره بألوان الرثاء على اختلافها فظهرت بواكيره الأولى مع ظهور الشعر منذ فجر الجاهلية، فقد ارتبط الرثاء الجاهلى بالبكاء والندب والعويل والعزاء، وكانت النساء أكثر من الرجال إظهاراً لحالة الجزع والأسى على الميت، لأن ذلك يتعلق بالقدرة على الصبر وتحمل أعباء الحياة من بعده فقد يكون أباً أو أخاً أو زوجاً أو أبناً.

(١) فنون الأدب العربى الفن الغنائى الرثاء، شوقى ضيف، ص ٥، الطبعة الثالثة دار المعارف وكذا أروع ما قيل فى الرثاء يحيى شامى ص ٦ الطبعة الأولى ١٩٩٢م، دار الفكر العربى، بيروت.

وقد ذكر الدكتور الحوفى بعضاً من السمات العامة التى يتسم بها شعرهن خاصة الرثاء فقال: "**البراعة فى قليل من تلك الموضوعات، وفى مقدمتها الرثاء، لأنه مجال فسيح للنواح والبكاء تنطلق فيه عواطفهن، وإن المرأة لتلجأ إلى دموعها أول ما تلجأ إذا ما قسا عليها الدهر، وإنها لتوالى بكاءها وتستطيله، وتلتذ حزنها وتستديمه، وفاء وحسرة أو ضعفاً ورقة، فإن كانت شاعرة نفست عن نفسها بأبيات تسكب فيها لوعتها وحرقتها**"(١).

وبعد أن يذكر أسماء لشاعرات من العصر الجاهلى والحديث يقول: "**ولكنهن فى مراثيهن حريصات على تصوير ما أصابهن من ضعف وذلة بعد فقد من فقدن، وهذا صدق شعورى وصدق واقعى لأنهن يعلمن أن الرجال هم حماتهن وهم ملاذهن .. وليس لهذه الظاهرة إثارة فى رثاء الرجال، وإن عظم حزنهم**"(٢).

ويرى الدكتور شوقى ضيف "**أن الشاعر الجاهلى قد ألمَّ بجوانب الرثاء الثلاثة من الندب والتأبين والعزاء، وكان رثاؤه غالباً يتعلق بأفراد، وقلما تعلق بمجموعة من الفرسان**"(٣). والواقع إن ما وصل إلينا "**من رثاء الجاهلية يمثل اتجاهين رئيسين أولهما: تهويل الشاعر فى تصوير أحزانه وعظم رزيته وتفردها، والآخر: محاولته أن يتأسى بأن من فقده واحد من البشر أو الأحياء الذين كتب عليهم هذا المصير**"(٤).

(١) أضواء على الأدب الحديث، أحمد محمد الحوفى، ص ٢٦٢، طبعة دار المعارف بالقاهرة.
(٢) المصدر نفسه، ص ٢٦٣.
(٣) تاريخ الأدب العربى العصر الجاهلى، شوقى ضيف، ص ٢١٠، الطبعة الثامنة.
(٤) الحياة والموت فى الشعر الجاهلى، مصطفى جياروك، ص ١٥٥، نشر وزارة الثقافة والإعلام، العراق، بدون تاريخ.

ومما يجعل الرثاء فناً ذا قيمة فى الشعر الجاهلى هو أن "**الرثاة عامة يعبرون عما فى جوانحهم من أحزان وقد تمثلوا دقة الموقف وروعة التأثير للمأساة البشرية فالمصير واحد يهددها وهى تسعى إليه حثيثة، ويبقى الإبداع متفاوتاً بينهم بمقدار قدرة أحدهم على التأثير والتأثر وحسن التعبير عن الأفكار والخواطر التى تدور حول المصير والدهر والموت والفقيد**"(١).

وعندما بزغ فجر الإسلام حاملاً معه حقائق الموت والحياة فإن معانى الرثاء تبدلت وفق تلك الحقائق، فالحياة الدنيا ليست إلا رحلة قصيرة للوصول إلى الحياة الأبدية ويفصل بينهما الموت. قال سبحانه وتعالى: ﴿**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ المَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الغُرُورِ**﴾(٢).

وأكدت المبادئ الإسلامية ضآلة الحياة الأولى أمام عظمة الحياة الآخرة وخلودها، إضافة إلى تأكيد حتمية الموت وثبات ساعة حدوثه بتوقيت إلهى مدون فى سجلات العبد عند ربه ولا تغيّر فى هذا التوقيت مهما كانت هناك محاولات للهروب قال تعالى: ﴿**أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ المَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ**﴾(٣) وقال سبحانه وتعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَاباً مُّؤَجَّلاً**﴾(٤).

(١) الرثاء فى الجاهلية والإسلام، حسين جمعة، ص ٢٥ دار معد للنشر والتوزيع، سورية، دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.

(٢) سورة آل عمران، الآية ١٨٥.

(٣) سورة النساء، من الآية ٧٨.

(٤) سورة آل عمران، من الآية ١٤٥.

وكيف لا يتغير مفهوم الموت عند المسلمين وقد أصبح طلبهم له جهاداً فى سبيل الله وتنفيذاً لعقد مبرم بينهم وبينه سبحانه بقوله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الجَنَّةَ**﴾(١).

وما أعظم ثقة رسول الله ﷺ وإيمانه بوعد ربه للمجاهدين الذين يموتون فى ساحات الجهاد والقتال عندما يقول: "**والذى نفس محمدٍ بيده لوددت أن أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل ثم أغزو فأقتل**"(٢).

والأمثلة فى التاريخ الإسلامى كثيرة وعظيمة، تدل جميعها على اختلاف جوهرى لمفهوم الموت بين الجاهلية والإسلام مما عكس تأثيراً واضحاً على معانى الرثاء ودلالاته أيضاً فهذه الخنساء(٣) الشاعرة الجاهلية، مات أخوها صخر فتقرحت عينها بكاء ونشيجاً وندبته بحرارة وحرقة ومرارة إذ تقول:

قَذَىَ بعينِكَ أمْ بالْعينِ عُوَارُ أم ذَرّفتْ إذْ خَلَتْ منْ أهِلها الدارُ
كأنَّ عَيْنى لذكراهُ إذَا خطرتْ فَيْض يسيلُ على الخدَّين مِدْرارُ
تَبْكِى خَنَاسُ فما تَنْفَكُّ ما عَمَرتْ لَهَا عليه رنينُ وهى مقْتَارُ
تَبْكى خَنَاسُ على صَخْرٍ وحَقّ لها إذْ رَابَها الدهرُ إنَّ الدهَرَ صِرارُ(٤)

(١) سورة التوبة، من الآية ١١١.
(٢) مسند الإمام أحمد، ج٢، ص ٢٣١، الطبعة الرابعة، ١٤٠٣هـ، المكتب الإسلامى، بيروت.
(٣) الخنساء بنت عمرو بن الشريد السليمة الشاعرة، واسمها تماضر، كانت شاعرة مجيدة، أسد الغابة فى معرفة الصحابة، عز الدين ابن الحسن على بن أبى الكرم محمد بن عبد الكريم الشيبانى المعروف بابن الأثير، ج٦، ص ٨٨، دار إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان.
(٤) ديوان الخنساء، ص ٤٢، ٤٣، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان.

وقد ثبت أنها شغلت نفسها وشعرها لهذا الحدث الذى ألمّ بها وأجزعها وملأ قلبها أسى ولوعة.

ولكن عندما امتلأ قلبها بالإيمان وتغلغل نور الإسلام فى عقلها وقلبها وعبق بتعاليمه دفعت بنيها الأربعة إلى ساحات الجهاد فى سبيل الله وقالت لهم: "**فإذا رأيتم الحرب قد شمرت عن ساقها واضطرمت لظىّ على سياقها، وجللت ناراً على أوراقها، فتيمموا وطيسها، وجالدوا رئيسها عند احتدام خميسها تظفروا بالغنم والكرامة فى دار الخلد والإقامة**"(١).

ويستشهد أبناؤها الأربعة فتقول بزهو وإيمان: "**الحمد لله الذى شرفنى بقتلهم وأرجو من ربى أن يجمعنى بهم فى مستقر رحمته**"(٢).

إنه مثل لفهم جديد لحقيقة الموت والحياة وإدراك واقعى للمعانى المرتبطة بهما فتحول الرثاء من جزع وأسى إلى استلهام الصبر وطلب الرحمة والمغفرة لذلك نجدها ترد على سؤال عمر بن الخطاب "**ما أقرح مآقى عينيك؟** قالت: **بكائى على السادات من مضر. قال يا خنساء، إنهم فى النار**، قالت: **ذاك أطول لعويلى عليهم، إنى كنت أبكى لهم من الثأر وأنا اليوم أبكى لهم من النار**"(٣).

لقد رثى شعراء المسلمين قتلاهم فجسدوا فى هذا الرثاء النظرة الإسلامية لحقيقة الاستشهاد والتى أقرها الله سبحانه وتعالى عندما قال: ﴿**وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾(٤).

---

(١) الإصابة فى تمييز الصحابة، أحمد بن على بن حجر العسقلانى، ج٤، ص ٢٨٨، دار صادر بيروت، ١٩١٠م.

(٢) الإصابة فى تمييز الصحابة، أحمد بن على ابن حجر العسقلانى، ج٤، ص ٢٨٨.

(٣) ديوان الخنساء، ص ١٠ وكذا العقد الفريد أحمد بن محمد بن عبد ربه، ج٣، ص ٢٢٨، دار الفكر، بيروت.

(٤) سورة آل عمران، الآية ١٦٩.

فذكروا بلاء هؤلاء الشهداء فى معارك المسلمين مع المشركين وأشاروا إلى المصير الذى آلوا إليه فور استشهادهم، كما فعل حسان بن ثابت عندما رثى حمزة بن عبد المطلب بقوله:

صـلَّى عليـه اللهُ فـى جنـةٍ عاليـةٍ مُكْرَمَـةِ الـداخل(١)

وعندما يستشهد خبيب بن حسان بن ثابت فى رثائه صورة الحياة الجديدة التى انتقل إليها إذ يقول:

فاذْهَبْ خَبِيب جَزَاكَ اللهُ طيبة وجَنَّةُ الخُلْدِ عند الحور فى الرُّفقِ(٢)

وإذ يجزع على سعد بن معاذ وبعض قتلى المسلمين يوم قريظة يقول:

صَبَابَةُ وَجْدِ ذَكّرتَنْي أحبَّةً وقَتْلَى مَضَى فيها طُفَيْلُ ورَافِعُ
وسعدُ فأصْحَوْا فى الجِنان وأوْحَشَتْ مَنَازلُهم فالأرضُ منهم بَلاقِعُ(٣)

فقد الرسول ﷺ وأثره على نفوس المسلمين:

وكان الحدث الكبير الذى أذهل المسلمين جميعاً هو وفاة رسول الله ﷺ، فمما لا شك فيه أنه لا يوجد أحد من صحابة النبى ﷺ عندما علم بموته، إلا وقد حزن حزناً عميقاً(٤)، وكادت روحه أن تزهق وعقله أن يذهب ويجن، لأنه فقد أحب الخلق وهو رسول الله ﷺ، حتى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه المعروف بالشدة والصرامة والتماسك، عندما علم بهذا الخبر لشدة حبه لرسول الله ﷺ لم يصدق الخبر، وقال: إنه لم يمت ولكنه ذهب إلى ربه وسيرجع، كما ذهب موسى بن عمران من قبل، ولندع كتب السيرة توضح شيئاً من هذا.

(١) ديوان حسان بن ثابت تحقيق وليد عرفات، ص ٣٨٧، دار صادر بيروت، ١٩٧٤.
(٢) المصدر نفسه، ص ٣٤٦.
(٣) المصدر نفسه، ص ٣٤٦.
(٤) عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير، ابن سيد الناس، ج٢، ص ٤٢٢، الطبعة الأولى، ١٩٩٧، منشورات دار الإيمان الجديدة – بيروت.

يقول صاحب كتاب السيرة النبوية أن عمر بن الخطاب ﷺ لم يتمكن من استيعاب النبأ فقال: "**إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ قد تُوفى؛ وإن رسول الله ﷺ ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران، فقد غاب عن قومه أربعين ليلة، ثم رجع إليهم بعد أن قيل قد مات، ووالله ليرجعنّ رسول الله ﷺ كما رجع موسى، فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم زعموا أن رسول الله ﷺ مات**"(١).

ويقول صاحب كتاب محمد رسول الله والذين معه "وجاء عمر وعثمان وعلى، وصك العويل أسماعهم فأما عمر فخبل، وأما عثمان فأخرس، وأما على فأقعد ولم تستطع قدماه أن تحملاه فانهار، وصار عمر فى ناحية المسجد يقول: "**إن رجالاً من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ مات ولكنه ما مات، ولكنه ذهب إلى ربه، كما ذهب موسى بن عمران عليه السلام، ثم رجع إلى قومه بعد أربعين ليلة، بعد أن قيل أنه مات، والله ليرجعن ... فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم**".

ومازال عمر يتوعد المنافقين حتى أزبد شدقاه، ودهش الناس وطاشت عقولهم، فما كانوا قادرين على أن يصدقوا أن خليل الله وحبيبه ونجيه وصفيه، ورسوله ونبيه يموت، أحقا قد انقطع عن الأرض وحى السماء؟!!!(٢).

ويأتى أبو بكر بعد سماع الخبر، ويرى ذهول الناس، وموقف عمر، فيردهم إلى صوابهم بعد أن ربط الله على قلبه، وأنزل السكينة عليه ودوت

(١) السيرة النبوية لابن هاشم حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها مصطفى السقا، إبراهيم الإبيارى، عبد الحفيظ شلبى، ج٤، ص ٦٥٥، دار المعرفة، بيروت، لبنان.

(٢) محمد رسول الله والذين معه، عبد الحميد جودة السحار، ج٢٠ ص ٤٤، طبعة نهضة مصر، وكذا تاريخ الرسل والملوك لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ج٣، ص ١٩٩، ٢٠٧، طبعة دار المعارف سنة ١٩٧٩م.

صيحته الخالدة فقال: "**إنه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حىّ لا يموت**"(١)، ثم تلا قوله تعالى: ﴿**وَمَا مُحَمَّدٌ إِلاَّ رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ انقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ**﴾(٢).

وإذا قسنا هذه الفاجعة بالعقل البشرى المجرد، وجدناها أكبر من أن يتحملها بشر إلا من ربط الله على قلبه مثل أبى بكر، فقد بكى الناس على رسول الله ﷺ وقالوا والله لوددنا أنا متنا، أنا نخشى أن نفتن بعده، ونزل بقلوب الناس حزن ثقيل وخيم الأسى على مدينة الرسول ﷺ، وبعد أن دخل على ومرافقوه وهم العباس وابناه الفضل وقثم، ومولياه أسامة وشقران، وأوس بن خولى الأنصارى(٣) ليغسلوا النبى ﷺ طفق على يقول: "**بأبى أنت وأمى يا رسول الله، انقطع بموتك ما لم ينقطع بموت غيرك من النبوة والأنبياء وأخبار السماء، وخصصت حتى صرت عمن سواك وعممت حتى صار الناس فيك سواء، ولولا أنك أمرت بالصبر ونهيت عن الجزع لانقذنا عليك ماء التسئون، ولكان الداء مما طلا، والحمد مخالفا، وقلالك، ولكن ما لا يملك رده ولا يستطاع دفعه، بأبى أنت وأمى اذكرنا عند ربك واجعلنا من بالك ...**"(٤).

وعندما أيقن الناس بوفاة النبى ﷺ تحولت ديار المسلمين إلى زلزال من الحزن والبكاء، وباتت قلوب صحابته تتقد بنيران الأسى والجزع، فرحيل

(١) السيرة النبوية، لابن هشام حققها وضبطها مصطفى السقا، إبراهيم الإبيارى، عبد الحفيظ شلبى، ج٤، ص ٦٥٥، ٦٥٦.
(٢) سورة آل عمران، الآية ١٤٤.
(٣) عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير، ابن سيد الناس، ج٢ ص ٤٢٢.
(٤) محمد رسول الله والذين معه، عبد الحميد جودة السحار، ج ٢٠ ص ٥٩.

النبى ﷺ كارثة كبرى نزلت بالمسلمين لأن مصيرهم معلق به إن لم يتدارك الأمر كبار الصحابة وأهل الأناة منهم، فيتابعوا مسيرة الإسلام كما رسمها النبى ﷺ.

وكان الشعراء المسلمون أكثر الناس إحساساً بهذه الصدمة العنيفة، وأكثرهم انفعالاً بهذا الحدث العظيم، فهزتهم الفاجعة فعبروا عن تأثرهم بها بقصائد صوروا فيها حجم الفجيعة التى ألمت بالأمة الإسلامية.

لقد كان رثاء رسول الله ﷺ موضوعاً بارزاً فى الشعر العربى إذ عدّه بعض الباحثين مدحاً كما فى قول زكى مبارك "**وأكثر المدائح النبوية قيل بعد وفاة الرسول، وما يقال بعد الوفاة يسمى رثاءً، ولكنه فى الرسول يسمى مدحاً، كأنهم لحظوا أن الرسول ﷺ موصول الحياة وأنهم يخاطبونه كما يخاطبون الأحياء، وقد يمكن القول بأن الثناء على الميت لا يسمى رثاء إلا إذا قيل فى أعقاب الموت، ولذلك تراهم يقولون: وقال حسان يرثى النبى ﷺ ليفرقوا بين حالين من الثناء ما كان فى حياة الرسول ﷺ وما كان بعد موت الرسول ﷺ ما يقع من شاعر ولد بعد وفاة النبى ﷺ، فإن ثناءه عليه مديح لا رثاء، لأنه لا موجب للتفرقة بين حال وحال، ولأن الرثاء يقصد به إعلان التحزن والتفجع**"(١).

إذن فقد حزن كل المسلمين على فقد رسول الله ﷺ وعلى انقطاع الوحى، وأصبحوا فى ذهول من شدة الصدمة وفداحة الكارثة، فهل لم يكن فى المسلمين شعراء غير حسان بن ثابت ليذكر شعره فى بعض المراجع التى ذكرت رثاء النبى ﷺ كما فعل ابن كثير وغيره، أو لم يوجد غير هؤلاء

(١) المدائح النبوية فى الأدب العربى زكى مبارك ص ١١ دار الكتاب العربى للطباعة والنشر القاهرة.

القلة من الشعراء الذين ذكرهم ابن سعد فى طبقاته، أمثال أبى بكر، وعبد الله بن أنيس وحسان وغيرهم، وهل لم يستطع هؤلاء الشعراء أن يرثوا رسول الله ﷺ بأكثر من هذه الأبيات؟

والحقيقة التى أراها أن الفاجعة عندما تكون ثقيلة على القلب وشديدة على النفس ولا تستطيع أن تتحملها، يشل التفكير ويعقد اللسان ويصبح الإنسان فى حالة ذهول، كما أن الانفعال القوى والعواطف الحارة فى مثل الغضب والحزن والفرح، لا يتفجر منها الشعر ساعة احتدامها، حتى يصبح صاحبها أشبه بالمتبلد، وكل شئ يزيد عن حده ينقلب إلى ضده، وهذا ما أشار إليه الدكتور محمد مندور عندما قال: "**والثابت أن الشراب والطرب والغضب والطمع وكافة المشاعر والانفعالات لا تخلق شعرا ساعة احتدامها، فالانفعال القوى يعقد اللسان، ويشل التفكير ويشغلنا عما عداه، فالشاعر لا يقول الشعر إلا بعد أن يصحو من الشراب ويهدأ بعد الغضب، إذ تصفو عندئذ قريحته ويستطيع الخلق وقداستقرت انفعالاته رواسب عقلية محتفظة بحرارة الشعور كامنة، وإذن فهو لا يقول إلا عن روية**"(١).

وإذا كان موضوع رثاء رسول الله ﷺ حافلاً بالشواهد الثابتة فإنه لم يكن بمستوى الحدث وحجم المصاب "**فدعا الشعراء قوافيهم لتعينهم على هول المصاب فعيّت وجاءت مراثيهم فيه - إلا القليل منها - ضئيلة الحظ من الجودة، فقد أقحم المصاب الشعراء وأعجزهم، وأقعدهم عن إجادة الرثاء والتأبين**"(٢).

(١) النقد المنهجى عند العرب منهج البحث فى الأدب واللغة مترجم عن الأستاذين لانسون ومابيه محمد مندور، ص ٣٨، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة.

(٢) شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، يحيى الجبورى، ص ٣٠١، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، مؤسسة الرسالة، بيروت.

فالمصاب إذن كان جللاً، مما جعل التعبير عنه أمراً فى غاية الصعوبة والمشقة لذلك فإننا لا نعجب إذا رأينا بعض شعراء المسلمين يعجزون عن قول كلمة واحدة فى رثاء النبى ﷺ، بينما جاءت مراثى البعض الآخر خلواً من المستوى الفنى الذى عهدناه فى شعرهم السابق.

ومن ثم قل شعر الشعراء فى رثائه ﷺ ولم تنقل لنا كتب السيرة إلا بعض الأبيات والقصائد القليلة التى رويت لبعض الشعراء لأن الفاجعة أعظم من أن يتناولها الشعراء وتصورها الكلمات.

ويمكننا أن نتبين الملامح الأساسية لشخصية رسول الله ﷺ عندما تستعرض الشعر الذى قيل فى رثائه عليه الصلاة والسلام.

رثاء النبى ﷺ عند شاعرات بيت النبوة:

إذا كانت قلوب المسلمين جميعاً قد فجعت بوفاة الرسول ﷺ فإن هذه الفجيعة قد ألهبت مشاعر المسلمين والمسلمات من أقاربه وكان جزعهم عليه مضاعفاً، فرثته ابنته فاطمة الزهراء وعمته أروى[١] وعاتكة[٢] وصفية[٣] وهند بنت الحارث بن عبد المطلب، وهند بنت أثاثة بن عباد

(١) أروى بنت عبد المطلب بن هاشم عمة الرسول ﷺ، أنظر أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير، ج٦، ص ٧، وكذا أعلام النساء فى عالمى العرب والإسلام، عمر رضا كحالة، ج١، ص ٣٢، ٣٣، مؤسسة الرسالة وكذا الطبقات الكبرى، محمد بن سعد كاتب الواقدى، ج٨، ص ٢٨، دار الفكر العربى، مؤسسة مصرية للطباعة والنشر.

(٢) عاتكة بنت عبد المطلب بن هاشم، عمة الرسول ﷺ، انظر أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير، ج٦، ص ١٨٤، وكذا سير أعلام النبلاء للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه شعيب الأرنؤوط، ج٢، ص ٢٧٢، وكذا الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين خير الدين الزركلى، ج٣، ص ٢٤٢، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، الطبعة السادسة، ١٩٨٤م.

(٣) صفية بنت عبد المطلب بن هاشم عمة الرسول ﷺ وهى أم الزبير بن العوام، انظر أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير، ج٦، ص ١٧٢.

بن المطلب بن عبد مناف أخت مسطح بن أثاثة[1]. لقد أظهروا من اللوعة والأسى ما يعبر عن حجم مصاب الأهل بفقدان سيد الأمة ونبيها.

لقد كانت المصيبة على السيدة فاطمة كبيرة جداً فقالت وهى تقف على قبره وتهمر الدمع غزيراً ثم تمسك ترابه فتشمه، وتمسح به وجهها وتكحّل به عينيها وهى تنشد:

ماذا على من شمَّ تربة أحمد ... ألا يشم مدى الزمان غواليا
صُبَّت علىَّ مصائبُ لو أنها ... صُبَّت على الأيام عُدْنَ لَيَاليا[2]

وتشارك السماء والشمس والأرض والجبال فاطمة الزهراء فى بكائها وكآبتها على فقد النبى ﷺ وسلم فلما دفن عليه السلام قالت:

اغبرَّ آفاقُ السماءِ وكُوِّرتْ ... شِمْسُ النَّهار وأظْلَمَ العَصْران
والأرضُ مِنْ بعدِ النبىّ كئيبةُ ... أَسَفاً عليه كثيرةُ الرُّجْفان
فَلْتَبْكِهِ شرقُ البلادِ وغربها ... ولْتَبْكِهِ مُضَرُ وكُلُّ يَمانِ
وليْبكِهِ الطَّودُ المعَظَّمُ جوَّه ... والبيتُ ذُو الأستارِ والأركانِ
يا خَاتَمَ الرُّسُلِ المبارك صِنْوُه ... صَلّى عَلَيْكَ منزلُ الفُرْقَانِ

(١) هند بنت أثاثة بن عباد بن المطلب القرشية أسلمت، انظر أسد الغابة فى معرفة الصحابة لابن الأثير، ج٦، وذا أخبار الدول وآثار الأول فى التاريخ، لأبى العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقى الشهير بالقرمانى، ص٩١، عالم الكتب، بيروت.

(٢) نهاية الأرب فى فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب النويرى، ج١٨، ص ٤٠٣، نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية فى القاهرة ص ٢٨٨ وكذا منح المدح، أو شعراء الصحابة ممن مدح الرسول ﷺ، ورثاه، ابن سيد الناس تحقيق عفت وصال حمزة، ص ٣٥٥ الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ – نشر دار الفكر دمشق، وكذا خاتم النبيين محمد ﷺ، سميح عاطف الزين، ص ٢٦، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، لبنان، مكتبة المدرسة ١٩٨٣م، وكذا الوفا بأحوال المصطفى لأبى الفراج عبد الرحمن الجوزى صححه ونسقه وعلق عليه محمد زهرى النجار، ج٢، ص ٥٦٠، المؤسسة، العيدية بالرياض.

نَفسْى فـداؤُكَ مـا لِرَأْسِـك مـائلاً مـا وَسّـدوْك وسَـادَة الوسـنانِ[1]

هو رثاء الابنة المؤمنة لخير أب وخير نبى، ودعوة لكل الأشياء أن تبكى هذا النبى المبارك، إنها خلجات قلب ابنة عاشت فى كنف والدها فتسرب نوره إلى قلبها فلم تقو على مفارقة ذلك النور.

وتشارك أروى بنت عبد المطلب بن هاشم، فى البكاء على ابن أخيها محمد ﷺ، وقد ذكرنا من قبل أن الشاعر لا يقول الشعر ساعة احتدام المصيبة، لأن الانفعال القوى يعقد لسانه أما النساء فأنهن يفثأن حزنهن بالدموع الغزار الحرار، وبالآهات والأنات والعويل وبالصمت الحزين والاستغراق الأليف والذكرى الموجعة، فإذا ما عمدن إلى القريض متحن من

(١) نهاية الأرب فى فنون الأدب أحمد بن عبد الوهاب النويرى، ج١٨، ص ٤٠٣، ٤٠٤، وكذا الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية لابن هشام لأبى القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبى الحسن الخثعمى السهلى قدم له وعلق عليه وضبطه طه عبد الرءوف سعد، ج٧، ص ٥٩٤ دار الفكر، بيروت، وكذا عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسيد ابن سيد الناس ج٢ ص ٤٢٣، الطبعة الأولى ١٩٧٧م، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت. وكذا ذهول العقول بوفاة الرسول ﷺ لأبى تراب الظاهرى، ص جـ، الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ/١٩٨٤م، دار القبلة للثقافة الإسلامية، وكذا إنسان العيون فى سيرة الأمين والمأمون المعروفة بالسيرة الحلبية للإمام على بن برهان الدين الحلبى الشافعى وبها مشها السيرة النبوية والآثار المحمدية أحمد زينى المشهور بدحلان، ج٣، ص ٤٠٣، المكتبة التجارية الكبرى بمصر. وكذا شعر الدعوى فى عهد النبوة والخلفاء الراشدين جمعه وحققه ووثقه وشرح غريبه وترجم لأعلامه ووضع فهارسه عبد الله بن حامد الحامد، ص ٣٨٩، ٣٩٠، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، دار اللواء للنشر والتوزيع. وكذا الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور زينب بنت يوسف فواز، ص ٣٥٩، الطبعة الثانية، دار المعرفة، بيروت، لبنان وكذا معجم النساء الشاعرات فى الجاهلية والإسلام عبدأ مهنا، ص ٢٠٧، ٢٠٨، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/١٩٩٠، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، وكذا العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده لأبى الحسن بن رشيق القيروانى الأزدى حققه وفصله وعلق على حواشيه محمد محى الدين عبد الحميد، ج٢، ص ١٥٣، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، ١٩٧٢م.

عاطفة قد تنفست، وأوين إلى لغة كان البكاء والنشيج والدمع السخين أطوع منها وأصدق تعبيراً[1].

وقد يبكى الرجل، ولكنه بكاء المتماسك، وقد يتحدث عن بكائه ولكن فى إيجاز، أما المرأة فقد كان رثاؤها وثيق الصلة بنفسها وميولها ودقة شعورها، وضعف احتمالها وسرعة انفعالها، فهى حريصة على تصوير ما أصابها من ضعف وذلة بعد أن فقدت من فقدت.

وهذا ما ترجمت عنه أروى بنت عبد المطلب بن هاشم رضي الله عنه حيث رثت النبى ﷺ فقالت:

ألا يا عَيْنُ! وَيْحَكِ أسْعِدينى ... بدمعِك ما بَقِيت وطَاوعينى
ألا يا عينُ وَيْحَكِ! واسْتهلّى ... على نُورِ البلادِ وأسْهدِينى
فإنْ عَذَلَتْكِ عاذلةُ فقُولى: ... عَلامَ وفِيمَ وَيْحِكِ تَعْذِلِينى؟
على نُورِ البلادِ معاً جميعاً ... رَسُول اللهِ أحْمَدِ فاتْرُكِينى
فإلاَّ تُقَصَرى بالِعَذْل عنَى ... فَلُومى مَا بَدَالَكِ أَوْ دَعِينى
لأمْرٍ هَدَّنى وأذَلَّ رُكْنى ... وَشَيبَ بَعْدَ جدَّتها قَرُونى[2]

ففى هذه الأبيات نجد أروى قد رسمت وصورت أكبر حدث هز كيان الدولة الإسلامية وهو موت الرسول ﷺ، فمنذ هذه اللحظة أيقن المسلمون أن الوحى قد انقطع وبدأت الحيرة تدب فى النفوس، وبدأت الشاعرة تبكى الرسول

(١) المرأة فى الشعر الجاهلى، أحمد محمد الحوفى، ص ٦١٧، ٦١٨، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة.

(٢) نهاية الأرب فى فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب النويرى، ج١٨، ص ٤٠٤، وكذا الطبقات الكبرى، محمد بن سعد كاتب الواقدى، ج٢، ص ٩٣. وكذا سمط النجوم العوالى فى أبناء الأوائل والتوالى، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامى المكى، ج٢، ص ٢٣٦، ٢٣٧، المكتبة السلفية.

ﷺ بأصدق الأشعار وأخلدها لأنها وجدت فيها العزاء والسلوان عما أصابها، ولم تُرِد من وراء ذلك جاها أو مالا، وكل ما يعنيها العزاء والندب لخير البرية ﷺ وقد وجدت فيه صدى لعاطفتها وإحساسها وروحها، وأروى رضى الله عنها قد صورت لنا واقعاً ملموساً وعبرت عن تجربة حقيقية عاشتها بكل كيانها، فهى وإن كانت عمة رسول الله ﷺ فالحزن أكبر والكارثة لا تستطيع أن تتحملها.

وقد استهلت هذه الأبيات بقولها: "**ألا يا عين**" وكررتها فى البيت الذى يليه، فهى تخاطب عينيها وتحثهما على البكاء وطالما فعل المفجوعون ذلك، والا من حروف التنبيه، وتأتى لتنبيه السامع بأن ما سيأتى بعدها من الكلام هو من الأهمية بمكان.

وقد خاطبت العين وحثتها على أن تسعدها بسكب الدمع وذرفه، وأن تطاوعها ما بقيت على قيد الحياة، ثم تراها تخاطبها ثانية، وهى تلومها "ويحك" أيتها العين القاسية الجامدة، أذرفى الدمع وجودى به سخية، ولكن على من؟ على نور البلاد وأسعد المخلوقات،فهو نور للكوكب الأرضى وهو السراج المنير، وقد اقتبست أروى – رضى الله عنها – من قوله سبحانه وتعالى: ﴿**قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ**﴾(١)، فالنور هو رسول الله ﷺ والكتاب المبين هو القرآن الكريم.

ثم تراها تخاطب عينيها وتقول لها فإن لامك اللوام وعذلتك الخلائق من المنافقين والكفار، فقولى لهم لماذا اللوم والعذل فى بكاء نور البلاد جميعاً؟ إنه الرسول ﷺ.

ثم نجدها تختتم هذه الأبيات بقولها:

(١) سورة المائدة، من الآية ١٥.

لأمْـــرٍ هَـــدَّنى وأذَلَّ رُكْنـــى وَشَـيبَ بَعْـدَ جـدَّتها قَرْونـى

فكأنها تريد أن تعلل لهذا البكاء والعويل، فهذا البيت يصور صورة صادقة للجزع، وناراً ملتهبة للوعة التى لا حدود لها، ومن خلاله نحس أن قلب أروى – رضى الله عنها – يخفق ألماً وأن نفسها تضطرم حزنا، فهذا المصاب قد هدها وأذل ركنها وشيّب شعرها وقضى على شبابها فأى خسارة أصابت الشاعرة التى ودت أن تموت ولكنها لا تملك إلا ذرف الدموع من تلك العين التى خاطبتها فى أول أبياتها، وتوسلت إليها أن تطاوعها على ذرف الدمع مدة بقائها على قيد الحياة.

ومن الواضح أن الأبيات غنية عن الشرح والتوضيح، والكشف عن صدق الشاعرة التى تلاقت كلماتها وعباراتها بأحاسيسها ومشاعرها التى فجرت كل هذه الشحنات، فقد ضمنت الشاعرة أبياتها كثيراً من الألفاظ والمعانى والعبارات التى تتمشى مع الجو النفسى وتتوائم مع ذلك الإحساس الذى ينتشر فى هذه الأبيات المعبرة، ويترك فى نفس من يقرؤها أو يسمعها أثر حزيناً عميقاً، ويزيد هذا الإحساس وهذا الأثر فى النفس المسلمة بعد الانتهاء من قراءة أو سماع هذه الأبيات، وذلك لأنها تخص وتتعلق بأفضل الخلق ﷺ.

ومن الملاحظ أن أثر الفاجعة الكبير قد سيطر على نفسية الشاعرة، وقد أدى هذا إلى عدم تركيزها فى أبياتها ومن هنا لاحظنا عليها التكرار فى هذه الأبيات القليلة فى مثل قولها: "ألا يا عين"، فى البيت الأول والثانى، ومثل قولها: "ويحك" كذلك وقولها: "عذلتك عاذلة" فى شطر واحدة، وقولها أيضاً: "نور البلاد" فى البيت الثانى والرابع.

فهذه الأبيات الستة نلاحظ فيها كثرة التكرار للفظ الواحد وللمعنى الواحد وهذا إن دل على شئ فإنما يدل علىأن الشاعرة لم تفق بعد من هذه الصدمة والفاجعة فهى مشوشة التفكير، ولو أنها تريثت وعاشت التجربة الشعرية ونظمت تفكيرها لجادت لنا قريحتها بشعر أفضل من هذا بكثير.

ولا شك فى أن أروى نظرت إلى قول الخنساء:

ألا يا عَيْنُ وَيْحَكِ أَسْعِدِينِى فَقَدْ عَظُمَتْ مُصيبتُهُ وَجَلَّتْ[1]

ولكن من الملاحظ أن أروى قد استخدمت ما يشبه التعليل والتفسير، وتوسعت فى وسائل الأداء التى وجدتها عند الخنساء. وهذه قصيدة أخرى لشاعرتنا أروى بنت عبد المطلب بن هاشم ترثى بها ابن أخيها محمد ﷺ:

أَلا يا رَسُولَ اللهِ كُنْتَ رَجَاءَنا وكُنْتَ بِنَا بَرّاً ولمْ تَكُ جافِيَا!
وكُنْتَ بِنَا رُءُوفاً رحيماً نبيِّنَا لَيَبْكِ عَليكَ اليوْمَ مَن كان بَاكيا!
لَعَمْرُكَ مَا أَبكى النبىَّ لِمَوْتِهِ! ولكنْ لِهَرْجٍ كان بَعدَكَ آتيا
كَأنَّ عَلَى قلبى لِذِكْرِ مُحَمَّد ومَا خفتُ من بعدِ النبىِّ المَكاوِيا
أفاطمَ صَلَّى اللهُ رَبَّ مُحَمَّد عَلى جَدَثٍ أَمْسَى بيثْربَ ثَاوِيا!
أَبَا حَسَن فَارَقْتَهُ وتَرَكْتَهُ فَبَكِ يحُزْن آخَرَ الدهر شاجيَا!
فِداً لِرَسُولِ اللهِ أمى وخَالَتى وَعَمّى وَنَفس قَصْرة ثم خاليا
صَبَرْتَ وَبَلَّغْتَ الرسَالَةَ صَادِقا وقمْتَ صَليبَ الدين أبْلَجَ صَافيا
فَلَوْ أنَّ رَبَّ النَّاسِ أبقَاكَ بَيْنَنَا سَعدْنَا ولكنْ أمرُنَا كان مَاضِيا
عَلَيْكَ من اللهِ السَّلامُ تحِيَّة وأدُخلت جَنَّات من العدنِ رَاضياً[2]

(١) ديوان الخنساء، ص ٢٧، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان.

(٢) الطبقات الكبرى محمد بن سعد كاتب الواقدى، ج٢، ص ٩٣. وكذا أعلام النساء فى عالمى العرب والإسلام، عمر رضا كحالة، ج١، ص ٣٤. وكذا شاعرات العرب جمع وتحقيق عبد البديع صقر، ص ٦، الطبعة الأولى ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، منشورات المكتب الإسلامى، وكذا منح المدح، ابن سيد الناس، تحقيق عفت وصال حمزة، ص ٣٣٦.

مما لا شك فيه أن هذه الأبيات صرخة من الأعماق، ولا يقرؤها إنسان أو يسمعها إلا نبض قلبه واهتزت مشاعره، لأن أروى استطاعت أن تصور فداحة المصيبة التى منى بها المسلمون بموت نبيهم ﷺ، فقد كان سند ورجاء كل مسلم وبرا بالجميع، فلم يكن جافيا أو غليظا فظا، ولذلك فقد التف حوله الجميع، وهو كما قال الله سبحانه وتعالى عنه: ﴿**لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ**﴾(١).

وبموته صلى الله عليه وسلم فقدت هذه الرحمة وذلك الحرص على منفعة ومصلحة المسلمين جميعاً، فليبك عليك اليوم الجميع، وهم لا يبكون لفقدك وموتك فقط، ولكن لما سوف يحدث من الهرج، وأروع ما فى هذه القصيدة أننا نحس بالصدق الواقعى والفنى معاً وبحرارة العاطفة وتدفق الشعور، والإحساس العميق بفداحة المصيبة، فقد جزعت الشاعرة أشد الجزع ومن هنا انطلق لسانها يعبر عن ذلك فى ألفاظ كأنها ثوب لفت به نفسها فهى تتقلب فيه ولا تستطيع عنه فكاكا لأنه ملازم لجسدها فى نومها ويقظتها، ويظهر ذلك بوضوح فى هذا التعبير الحزين "...على جدث أمسى بيثرب ثاوياً؟!" وأيضاً قولها:

أَبَــا حَسَــن فَارَقْتَــهُ وتَرَكْتَــهُ فَبَك يحُزْن آخَرَ الدهر شاجيًا!

فقد صورت الحزن قطعة من نفسها إلى أن تموت، ونستشف من رثاء هذه الشاعرة أنها كانت ترى الرثاء ديناً فى عنقها وتجده عزاءً وسلواناً نحو هذا الحبيب وحقاً واجباً له، ومن هنا كان رثاؤها من النوع الإنسانى غير المتكلف الذى يصدر عن نفس لا تعرف التعقيد أو الزخرف اللفظى.

(١) سورة التوبة، الآية ١٢٨.

ومن الملاحظ أن هذا الرثاء قد صدر من نفس تحس بلذع الحزن ولا تستطيع أن تخفيه وهذا يفسر لنا خلوه من الفلسفة التى تعتمد على الجدل المنطقى أو العقلى فقد عبرت تعبيراً مباشراً وترجمت ما تحسه وما تشعر به تجاه النبى ﷺ وخسارة الإسلام فيه.

وفى هذه القصيدة تظهر بوضوح براعة الشاعرة فى فن الرثاء، فقد نقلته من مسألة فردية إلى مسألة عامة يشترك فيها جميع المسلمين، فموت الرسول ﷺ خطب فادح، رزئت به الأمة الإسلامية جمعاء، ويظهر ذلك بوضوح عندما تعبر الشاعرة عن المجموع، وتتكلم بلسان الأمة وتصور الشعور العام ولا تخص نفسها بالتعبير فتقول مثلاً: "**كنت بنا برا، كنت بنا رؤفا، ليبك عليك اليوم من كان باكيا، أبقاك بيننا ..**".

وعندما نتأمل هذه الأبيات، نشعر أن قلوب المسلمين جميعاً تخفق ألماً وتمتلئ بالحزن العميق، فقد صورت فجيعة المسلمين وجسامة الخطب الذى أصابهم فى سويداء القلوب، ثم نراها تختتم القصيدة بقولها تخاطب النبى ﷺ:

صَبَرْتَ وَبَلَّغْتَ الرسَالَةَ صَادِقا وقمْتَ صَليبَ الدين أبْلَجَ صَافيا
فَلَوْ أنَّ رَبَّ النَّاسِ أبقَاكَ بَيْنَنَا سَعدْنَا ولكنْ أمرُنَا كان مَاضِيا
عَلَيْكَ من اللهِ السَّلامُ تحيَّة وأدْخلت جَنَّات من العدنِ رَاضياً

فنراها تصور صبر الرسول ﷺ حتى بلغ ما أنزل إليه من ربه فى صدق إيمان، وأقام أركان الإسلام، وتركنا على المحجة البيضاء صافية نقية لا عوج فيها ولا التواء، واكتمل الدين فلو أن الله سبحانه أبقاه بيننا لبقيت السعادة تظلل حياتها وحياة المسلمين، ولكن أمر الله لابد من نفاذه، وهذه سنة الله فى خلقه، فقد كتب الموت على كل المخلوقات ﴿**كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ**﴾(١).

(١) سورة القصص، من الآية ٨٨.

ثم تراها تختتم قصيدتها بالسلام والتحية المباركة إلى روح النبى ﷺ وتطلب من الله أن يجمعه بالمسلمين فى فسيح الجنات يوم القيامة.

وإذا أردنا أن نعقد موازنة بين هذه القصيدة والأبيات الأولى نجد أن هذه القصيدة أجود من الأبيات الأولى، لأننا نحس فى هذه القصيدة بقوة الإحساس وحرارة العاطفة وجمال التصوير والتعبير معاً، فهى أقوى من الأولى بكل المقاييس وإذا ذهبنا نلتمس لذلك أسباباً، وجدنا من هذه الأسباب أن الشاعرة قالت هذه القصيدة بعد أن دفن النبى ﷺ وهدأت نفسها بعض الشئ من شدة هذه الصدمة وأحست أنها أمام حقيقة واقعة وأنها لا تملك من الأمر شيئاً، فلتستسلم للقضاء وترضى بالحكم وتصوغ مشاعرها وتنفس عنها فى مثل هذه القصيدة الرائعة الحزينة، أما الأبيات الأولى فقد قالتها فى بداية الكارثة والفاجعة وقبل أن يدفن النبى ﷺ فجاءت – كما قلنا – أفكارها مشوشة خالية من التركيز مليئة بالتكرار وأكبر دليل على ما نقول قولها فى القصيدة الثانية عندما خاطبت الإمام على – كرم الله وجه:

أَبَــا حَسَــن فَارَقْتَــهُ وتَرَكْتَــهُ فَبَك يحُزْن آخَرَ الدهر شاجيَا!

وقولها قبل هذا البيت "**على جدث أمسى بيثرب ثاويا** ..." فهذا يدل على أن القصيدة الثانية قالتها بعد أن أفاقت من هول المصيبة فجاءت مركزة مصورة للمصيبة ونادبة لأفضل الخلق ﷺ.

وتصب عاتكة بنت عبد المطلب بن هاشم(١) دموعها فى نهر الدموع الذى جرى فى المدينة المنورة عند رحيل رسول الله ﷺ فما أكثر ما خاطبت عينيها لتجودا بالدمع فتقول:

(١) الموسوعة العربية الميسرة بإشراف محمد شفيق غربال، ص ١١٧٢، الطبعة الثانية ١٩٧٢، دار الشعب ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر.

عَينى جُودا طَوَالَ الدَّهرِ وَانْهَمِرا سَكْباً وَسَحّاً بدَمعٍ غيرِ تَعذيرِ!
يا عين فاسْحَنفِرى بالدَّمع وَاحتفلى حتى المَمَاتِ بسَجْل غَيرِ مَنْزُورِ
يا عَينِ فانهمِلى بالدَّمعِ واجتهدى للمُصْطَفَى دونَ خلقِ اللهِ بالنَورِ
بِمُسْتَهِلُ من الشُّوبوبِ ذى سَيَل فقد رُزِئْتِ بنى العَدْلِ وَالخيرِ!
وكُنْتِ من حَذَرٍ للموْت مُشفقةَ وللَّذى حُظَّ من تلكَ المقادير!
من فقْدِ أَزْهَرَ ضَافِى الخُلْقِ ذى فَخَرٍ صَافٍ من العَيبَ والعاهاتِ والزُّور!
فاذهَبْ حميدًا! جَزَاكَ اللهُ مغفرةً يوْمَ القيامةِ عندَ النفخِ فى الصُّورِ[1]

والمتأمل فى هذه الأبيات يرى أنها تمتلئ بالمشاعر الصادقة والأحاسيس الفياضة، فهى مشاعر عمة تعمقها الحزن، بل أن قلبها ليكتوى به، وهى لا تملك إفصاحاً عن قوة وشدة حرارته فى أحشائها إلا هذه الكلمات الملتاعة، التى تخاطب بها عينيها، وتحثهما على البكاء طوال الدهر لعلها تجد فيه سلوى، وفى الدموع ما تغسل به هذا الحزن الذى كاد يقتلها، فتراها تحمل أبياتها كل ما تشعر به من وجد، وترفع بها صوتها، وترجعه ترجيع الوالهة الثكلى، على من تحب بعد فقده.

وهذه العمة الحزينة نراها تحذر من الموت وتشفق على ابن أخيها الحبيب منه، وتخشى أن يأتى هذا اليوم وهى على قيد الحياة، ولكنه القدر وما كتب فى اللوح المحفوظ منذ الأزل، فهى لا تملك إلا أن تسلم الأمر كله لله تعالى، وتطلب من الله سبحانه وتعالى أن يجزيه عنها وعن أمة الإسلام خير الجزاء والمغفرة يوم القيامة، وعند النفخ فى الصور.

(١) الطبقات الكبرى محمد بن سعد كاتب الواقدى، ج٢، ص ٩٣، ٩٤. وكذا سمط النجوم العوالى فى أنباء الأوائل والتوالى، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامى المكى، ج٢، ص ٢٣٦.

وقد رسمت لنا الشاعرة من خلال هذه الأبيات صورة من صور الحزن على الحبيب المصطفى ﷺ نبى الخير والعدل، وحشدت لها هذه المعانى المؤثرة والألفاظ الحزينة التى ينبعث منها الأسى، فمن الملاحظ أنه قد تكرر لفظ الدمع فى الأبيات الثلاثة الأولى، كما تكرر فى البيت الأول ثلاث كلمات خاصة بالدمع وهى الانهمال والسكب والسح.

وبذلك التصوير الرائع الذى عزفت عليه الشاعرة ألحان اللوعة والحزن والأسى لفقد أشرف خلق الله تعالى، وأقول ذلك النجم الذى لا يعدله فى الخلق أحد قد تغلغلت إلى مشاعرنا، وجعلتنا نعيش معها بكل جوارحنا. وبهذا التصوير استطاعت الشاعرة أن تحقق دور الشعر.

والشاعرة فى هذه الأبيات تصور أحزانها وتخاطب عينيها لتجودا بالدمع الغزار على هذا الحبيب الصافى من العيب الخالى من العاهات بل تقول للدموع انهمرى بشدة واسكبى بسخاء، وسحى حتى الممات فليس هناك دموع تبقى أو تختزن بعد موت رسول الله ﷺ أنها العاطفة الصادقة والإحساس بالحزن العميق والفاجعة والكارثة، والشعور بالمأساة ومما لا شك فيه أن هذا من أصدق ألوان الرثاء.

وتحث عاتكة من جديد مقلتيها على سح الدموع فلن تكون لهما مصيبة يبكيانها كمصيبتهما برحيل خير البرية ونور البلاد محمد ﷺ. فتذكر بعض صفاته وتتحسر على زوالها فتقول:

يا عَينِ جُودى ما بقيتِ بعَبَرةٍ سَحًّا على خَيرِ البَرِيَةِ أحْمَدِ
يا عَينِ فاصَفلى وَسُحِّى واسْجُمى وَابكى على نُورِ البلادِ مُحَمَّدِ!(١)
أَنَّى لَكِ – الوَيَلات – مثلُ مُحَمَّد فى كلِّ نائِبةَ تَنُوبُ ومَشْهدِ؟

(١) اسجمى: من سجم الدمع إذا سال.

فـابكى المبـارَكَ والموفـقَّ ذا التُّقَـى حَـامى الحقيقـةِ ذَا الرشـادِ المرْشِـدِ
مَــنْ ذا يَفُــكَّ عــن المغَلَّــلِ غُلَّــهُ بَعدَ المغَيَّـبِ فـى الضَّـريحِ الملحَـد؟
أَمْ مَــنْ لكــلِّ مُــدَفَّعٍ ذى حاجَــةٍ وَمُسَلْسَـلٍ يَشـكو الحديـدَ مُقيَّـدِ؟[1]
أَمْ مَــنْ لَــوحْى اللهِ يُنْــزَل بَيْنَنَــا فـى كـلِّ مُمْسـى لَيْلَـة أَوْفـى غَـدِ؟
فَعَلَيْــكَ رحْمَــةُ رَبِّنَــا وَسَــلامُهُ يـا ذا الفَوَاضِـلِ والنَّـدَى والسُّـودَدِ!
هَــلاَّ فَــدَاكَ المــوْتَ كُــلُّ مُلَعَّــنٍ شَــكْس خَلائقُــهُ لَئِــيمِ المَحْيَــدِ؟[2]

فمن الملاحظ فى هذه القصيدة أن الشاعرة تدور فى فلك الأبيات السابقة، فكما بدأت أبياتها المتقدمة بمخاطبة العين فعلت هنا، وكأنها لا تملك إلا الدموع، وخاطبت عينيها وأمرتها أن تجود بالدموع ما بقيت فى هذه الحياة، وأن تسكب العبرات على خير البرية أحمد ﷺ فهى تبكى على فقيدها وتشيد به، بل تراها تجرد من عينها شخص تخاطبه، وتدعو عليه بالويل والثبور وتقول له: "لك الويلات" هل يوجد مثل محمد ﷺ؟ وهل تحل بالمسلمين مصيبة وكارثة مثلما حلت بموته؟ فابك ما استطعت إلى انتهاء الحياة وانقضائها.

وهكذا تؤكد عاتكة مكانة الرسول الكريم، ومقدار الخسارة التى لحقت بالمسلمين من جراء وفاته فهو نور البلاد وخير البرية المبارك الموفق الذى سخر حياته للدفاع عن الحق.

وكأن عاتكة ترى فى ذلك ما ينفس عنها بعض الشئ، وتخفف به عن نفسها الحزينة، فهى تداوى الجرح بالجرح، وتبكى وتعدد صفاته ﷺ لعلها تنفس الكرب والهم وتسكن بعد ثورة النواح والأنين.

(١) المدفع: الفقير الذليل.

(٢) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد الواقدى، ج٢، ص ٩٤. وكذا نهاية الأرب فى فنون الأدب شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى، ج١٨، ص ٤٠٥، ٤٠٦، نسخة وصوره عن طبعة دار الكتب وزارة الثقافة والإرشاد القومى المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

والشاعرة فى هذه المرثية – كما فى غيرها – تصور فجيعة الأمة الإسلامية، فكلها تدور حول صفات النبى ﷺ وجوده وسخائه، وشجاعته، وهى تشكو فقدان كثير من المكرمات التى كان النبى ﷺ يقوم بها قبل وفاته فمن يزيل الهموم عن المهمومين ومن يعين المحتاجين وعلى من ينزل الوحى كل مساءً إن كل هذه الأمور ذهبت مع ذهاب صاحب الفضل والندى والسؤدد وهو الرسول ﷺ، وقد صاغت ذلك على شكل أسئلة لتكون أبلغ ولا يستطيع إنكارها أحد فنراها تقول وتتساءل: "**من ذا يفك عن المغلل غله؟**". من يفك دين هذا المغلل، ويقضى عنه دينه، بعد ذهاب هذا الجواد فى قبره الشريف، أو "**من لكل مدقع ذى حاجة**" أى من لصاحب الحاجة وهذا الفقير المدقع فى الفقر من يعطيه ما يحتاجه ويمد له يد المساعدة والعون، أو "مسلسل يشكو الحديد مقيد؟ أى ومن لهذا المقيد فى السلاسل الحديدية داخل نفسه أو فى داخل مجتمعه، من يفكه من تلك القيود، ويطلقه من هذه السجون، بعد رحيل المصطفى ﷺ؟

والأمر الأدهى من ذلك والأمر من سيأتى عليه وحى السماء، وينزل عليه جبريل – عليه السلام – بالآيات المحكمات البينات، بعد النبى الخاتم والرسول الكريم ﷺ. إنها مرثية مليئة بالأسى واللوعة الشديدة عليه والبكاء على المحتاجين والضعفاء، من يكون لهم من بعده ﷺ فقد ضعفت شوكتهم، بل لقد انكسرت هذه الشوكة، واهتز ركنهم، وأصبحوا حيارى يتخبطون فى الظلمات.

ومن الملاحظ أن عاتكة فى هذه القصيدة تميل إلى التلوين فى أسلوبها، واستطاعت أن تستخدم أسلوب النداء للعين، وكأنها إنسان يعقل، ويعرف مكانه الرسول الكريم، وقد استخدمت أسلوب الاستفهام دقيقاً مطبوعاً بدون تكلف. كذلك لا ننسى العبارات الدقيقة والألفاظ الجزلة، ودور الخيال

الخصب فى تجسيم مشاعر الحزن والأسى لفقد الحبيب ﷺ الجدير بكل الحزن لأنه أشرف وأفضل الخلق على الإطلاق.

والقصيدة فى جملتها مثال واضح لشعر الرثاء الجيد، الذى وفرت له صاحبته كل عناصر النص الكامل من الفكرة والأسلوب والتجربة الشعرية والخيال المحلق.

فإذا تأملنا الفكرة نجدها نابعة من واقع ملموس وحقيقة ثابتة، وهى موت خير خلق الله كلهم ﷺ، وهذا كان له أكبر الأثر على نفوس المسلمين، فأوحى لعاتكة بهذه الفكرة التى تدور حول مأساة كل مسلم باغتته الأحداث فى كل بقعة من بقاع الأرض، خاصة الذين كان يمد لهم يد العون ويساعدهم النبى ﷺ من المحتاجين والضعفاء وهو صاحب الفضل والندى والسؤدد على الجميع.

وقد رأت منه عاتكة الأخلاق الكريمة والسلوك الرفيع الذى تعلمه من القرآن الكريم، وأدبه به ربه سبحانه وتعالى فأحسن تأديبه ومن ثم كان رثاؤها صادقاً معبراً عن تجربة شعرية حقيقية عاشتها وسبرت أغوارها وتعايشت معها، فانفعلت بها واستجابت لها، واستطاعت أن تكشف عنها بأسلوب وكلمات تلائم تلك التجربة "لأن حسن اختيار الكلمات الموحية بطاقتها وجرسها ومعناها يعد أول خطوة من البناء الفنى، وأن تأثير الكلمات يتفاوت قوة وضعفاً تبعاً لنوعها، لأن هذه النوعية تلعب دوراً مهماً فى الإيحاء برؤية الشاعر، فالفعل يكون أكثر تأثيراً فى الذهن، وأعمق فى إشعاعه الفكرى ..."(١).

وكيف لا وعاتكة تردد الصورة التى لحقت بهؤلاء الضعفاء الذين كانوا يستمدون قوتهم منه ﷺ، ويأخذون كل ما يحتاجون إليه، بل كان يفضلهم

(١) النقد التطبيقى والموازنات، محمد الصادق عفيفى، ص ٢٥، ٢٦، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، الناشر مؤسسة الخانجى بمصر.

على الأقرباء وذوى الأرحام والأقوياء، وكيف لا وعاتكة ترى أن الوحى الذى فيه شفاء لما فى الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين، وفيه تشريع لما يجرى بينهم وفى حياتهم الدنيا، سينقطع ويتوقف ولا ينزل جبريل – عليه السلام – إلى الأرض ثانية، وهى هنا تؤمن بأن هذا الفقيد الحبيب نور البلاد، واصطفاء رب العباد، وخاتم الرسل والأنبياء ﷺ.

ثم تختم عاتكة هذه القصيدة بالسلام على رسول الله ﷺ وطلب المغفرة والرحمة له من الغفار الرحمن سبحانه وتعالى، لأنه صاحب كل فضل وكل وجود، فهو سيد ولد آدم ولا فخر. وتفيض دموع السيدة عاتكة فى قصيدة أخرى تبثها أسفاً وحسره على فقد رسول الله ﷺ الذى كان يسند الحق ويبث النور وينشر الهداية والرشاد، البر العادل التقى، المنعم بالطهارة والحلم نصير اليتامى فى أيام الشدة، فقالت:

أَعَيْنَيَّ جُودا بالدموع السواجمِ ... عَلَى المصْطَفَى بالنور من آل هاشمِ
عَلى المُصْطفَى بالحقِّ والنُّور والهُدى ... وبالرُّشْد بَعدَ المُنْدَبَات العظائمِ
وسُحَّا عليهِ وابكِيا ما بَكيْتُما ... عَلى المرْتَضَى للمُحْكَمَات الغَزَائمِ
على المِرْتضَى للبرِّ والعَدْل والتُّقَى ... وَللدِّينِ والإسْلامِ بعدَ المظالمِ
على الطَّاهِرِ الميمونِ ذى الحلم والنَّدَى ... وَذى الفضْل والدَّاعِى لخير التراحمِ
أَعَيْنَيَّ ماذا بَعدَ ما قد فُجعْتُمَا ... بهِ تبكيَانِ الدَّهَر من وُلْدِ آدم؟
فجُودا بسَجْلٍ وانْدُبا كلَّ شارقِ ... رَبيعَ اليَتَامَى فى السنينَ البَوَازِمِ![1]

فهذه الأبيات كسابقتها يغلب عليها طابع الألم والحزن العميق، والسيدة عاتكة هنا تميل إلى ذكر مناقب النبى ﷺ والثناء عليه، فهى حريصة

(١) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد كاتب الواقدى، ج٢، ص ٩٤. وكذا ديوان من الشعر العربى المختار، تأليف وجمع وترتيب إبراهيم السليمانى الطاحى، ج١، ص ٤٤، مطابع المنار القصيم، المملكة العربية السعودية.

على ذكر الكثير من فضائله وخصاله والتى لا تحصى، وأخلاقه العظيمة، فهو النبى الكريم الذى جاء بالنور والهدى والرشاد والحق والعدل والتقى والبر، وقد جمع كل الفضائل والمزايا فى الدين الإسلامى الذى جاء به ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويجعل من الأمة الإسلامية أمة تقود العالم بعد الجهل والضلال، بل يجعل العالم كله أسرة واحدة ترعى مصالح بعضها بعضاً فهذه الخصال الكريمة والأخلاق الفاضلة التى نادى بها النبى ﷺ، جعلت منه قائداً وزعيماً، وسياسياً ومعلماً، وأخاً وصديقاً، وهى خصال ومناقب لم تجتمع لشخص غيره ﷺ.

والسيدة عاتكة عندما تصر على ذكر هذه الخصال والمناقب وترددها فى هذه الأبيات فهى تدعو للاقتداء بها، ويتأسى بها الآخرون من بعده فى أخلاقهم وسيرهم، هذا بالإضافة إلى إظهار حرقة الألم ومرارة اللوعة والأسى والتعبير عن أثر الفجيعة فى نفوس جميع المسلمين، ولتظهر أن موت النبى ﷺ إنما هو مصيبة عامة وخطب جسيم، لأنها تناولت حياة النبى ﷺ من جوانبها المختلفة، فكما تناولت الجانب الشخصى له من حيث كونه نوراً وهادياً ومرشداً.

فقد تناولت كذلك الجانب الخلقى والإنسانى والاجتماعى، وما أسداه للأمة الإسلامية من أعمال جليلة متمثلة فى وجوه الإصلاح والخير والبر والنفع العام، وما كان له من آثار عظيمة فى كل شئون الحياة المتصلة بالدين أو الدنيا، فقد كان محمد نوراً يتألق سراجه فى آفاق البشر مثلما تتألق الشمس فى كبد السماء، وكانت أقباس هذا النور تخامر الأفئدة، وتنساب إلى العقول لتخلص المؤمنين من ظلمات الحيرة والطيش والتخبط ومن ثم تميز المؤمنون الذين يتبعون محمداً بأنهم قوم مستنيرون! يعلمون حين يجهل

غيرهم، ويكملون حين ينقص، ويطمئنون حين يرتاب ويعدلون حين يظلم، ويحيون بحق الله وحق أنفسهم حين ينسى غيرهم ربه(١).

ومن هنا كان يجب على العيون أن تجود عليه بالدموع السواجم الغزار، وأن تسح عليه تبكى طوال الدهر، ولا تكف عن هذا البكاء فى ليل أو نهار، فإذا لم تبك هذه العيون لموت الحبيب والمعلم العظيم، وصاحب الشريعة الغراء الذى حرر الإنسان من قيد العبودية، وأنار الدنيا بعد ظلامها، فعلى من يكون البكاء من ولد آدم؟! والإجابة الشافية عن هذا السؤال هى: لا يوجد أحد بعده يستحق البكاء، ولا توجد مصيبة يحزن لها القلب بعد موته ﷺ، وقد قال النبى ﷺ بنفسه: "**يا أيها الناس أيما أحد من الناس (أو من المؤمنين) أصيب بمصيبة فليتعز بمصيبته بى، عن المصيبة التى تصيبه بغيره، فإن أحداً من أمتى لن يصاب بمصيبة بعدى أشد عليه من مصيبتى**"(٢).

وقد عبرت السيدة عاتكة عن هذا المعنى بتعبير قوى له قيمته وهو:

أَعَيْنىَّ ماذا بَعدَ ما قد فُجعْتُمَا بهِ تبكيَانِ الدَّهَر من وُلْدِ آدم؟

ونلاحظ من خلال هذا التعبير الصدق الفنى والواقعى الحقيقى، الذى لا يختلف عليه اثنان من المسلمين، فلا مصيبة تحزن الإنسان بعد فقد نبى الرحمة والهدى ﷺ.

(١) فى موكب الدعوى محمد الغزالى، ص ٨٨، الطبعة الرابعة ديسمبر ١٩٦٥م، دار الكتب الحديثة ١٤ شارع الجمهورية عابدين القاهرة.

(٢) السيرة النبوية لأبى الحسن على الحسنى الندوى، ص ٣٤٨، الطبعة الثانية، صفر ١٣٩٩هـ/مارس ١٩٧٩م، دار الشروق. وكذا بهجة المجاس وأنس المجالس لأبى عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبى تحقيق محمد مرسى الخولى، ج٢، ص ٣٤٨، الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان. وذا محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء بأبى القاسم حسين بن محمد الراغب، الأصبهانى، ج٤، ص ٥١٣.

وقد استطاعت السيدة عاتكة أن تحشد كماً كبيراً من الألفاظ التى توحى بعظم هذه المصيبة فى تلك الأبيات وقد كانت موفقة إلى حد كبير، فقد رأينا ألفاظها تنطق بما تحسه من ألم وحزن وأسى وحيرة حتى على جميع المسلمين ويظهر ذلك بوضوح فى مثل قولها: "**الدموع، السواجم**"، "**المندبات العظائم**"، "**سحًا، وابكيا، ما بكيتما**" "**فجودا بسجل واندبا**" "**ربيع اليتامى**" "**السينين البوازم**".

كل هذه الألفاظ تملأ الأبيات بجو الحزن العميق والكآبة، وقد برعت السيدة عاتكة فى هذا لتجعل المتلقى يعيش معها هذه المصيبة، ويحس ويشعر بما تحس به وتشعر، وهذا هو الشاعر الذى يجعل فنه خالداً وكلمته فيها حياة وروح على مر السنين والدهور.

وقد استطاعت السيدة عاتكة أن تستخدم معجماً شعرياً خاصاً يزيد من فداحة المصيبة واللوعة والحرقة والحزن والأسى وهذا المعجم وإن حمل فى ألفاظه الخارجية البهجة إلا أنه فى معناه ومضمونة يحمل قمة الحزن والألم والأسى ويتضح ذلك فى مثل قولها: النور، الهدى، الرشد، للبرِّ، العدل، التقى، الطاهر، الميمون، "ذى الحلم والندى" إلى غير ذلك، فبهذه الألفاظ فى الحقيقة تزيد فى التفجع واللوعة والحسرة.

وهذا يحسب للشاعرة ويدلنا على حسن استعمالاتها لهذه الألفاظ واختيار ما لهذا المعجم الذى يبدو متناقضاً فى الظاهر ولكنه فى الحقيقة فى قمة التوافق والانسجام.

وكانت صفية بنت عبد المطلب أكثر الباكين على رسول الله ﷺ ويبدو أنها قد اعتادت الأسى فقد تجرعته يوم أحد عندما قتل شقيقها حمزة بن

عبد الطلب سيد الشهداء فبكت وجزعت أشد الجزع[1] وعندما عرفت بوفاة الرسول ﷺ تراكمت عليها الهموم وامتلأ قلبها بالحزن الشديد فمثال شعرها النسائى المتفجع مثالاً للعاطفة المتدفقة يثريها الإيمان وتمدها الشاعرية الصافية مدللة بتاجها الفنى وهى قريبة رسول الله، على أن الإسلام كان مدداً وغنى لآفاق شعرنا العربى، ومنطلقاً له نحو آفاق عليا شاملة.

ورثت صفية رسول الله بمقطوعات عديدة استطاعت أن تجلو فى بعضها مقام الرسول الكونى، وطرفاً من آفاق رسالته الشاملة، فكان شعرها أصفى ما قيل فى هذا المقام. ها هى تشكو ضعف حيلتها إلى الله سبحانه فتقول:

لَهْفَ نَفْسِى! وَبِتُّ كالمَسْلُوبِ ... آرقُ اللَّيْلَ فِعْلَةَ المَحْرُوبِ!
مِنْ هُمُومٍ وَحَسْرَةٍ رَد فَتْنِي ... لَيْتَ أَنِى سُقيتها بشَعُوبِ!
حينَ قالوا: إن الرسولَ قدَ أمْسَى ... وَافَقَتْهُ مَنِيَّةَ المَكْتُوبِ!
إذْ رأَيْنَا أَنَّ النبِيَّ صَرِيعُ ... فأَشَابَ العَذَالَ أَىُّ مَشِيب
إذْ رأَيْنَا بُيُوتَهُ مُوحِشَات ... لَيْسَ فِيهِنَّ بَعْدَ عَيْش حَبِيبِ
أَوْرَث القلَّب ذاك حُزْنا طويلا ... خالطِ القَلْبَ فهْوَ كالمَرْعوب
ليت شعرى! وكيف أُمْسى صحيحا ... بَعْدَ أَنْ بينَ بالرسولِ القريب؟

(١) نساء ومواقف، فايز موسى أبو شيخة الحلقة الأولى، ص ٥٩، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، مكتبة الفلاح، الكويت. وكذا قول على قول حسن سعيد الكومى، ج٢، ص ٣١٩، الطبعة السابعة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، لبنان. وكذا أعلام النساء فى عالمى العرب والإسلام عمر رضا كحالة ج٢ ص ٣٤١، ٣٤٢. وكذا شاعرات العرب جمع وتحقيق عبد البديع صقر، ص ٢٠١، وكذا الموسوعة العربية الميسرة بإشراف محمد شفيق غربال، ص ١١٢٥. وكذا مسلمات خالدات، محمد عمر الداعوق، محمد على القطب، ج٢، ص ١١، ١٢، ١٣، الطبعة الأولى، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان.

أَعْظَـمِ النَّـاسِ فـى البَريـةِ حَقًّـا سَـيد النَّـاسِ حُبُّـهُ فـى القُلُـوب
فـإلى الله ذاك أَشْـكو! وَحَسَّـبى يَعْلَـمُ اللهُ حُـوْبى ونَحِيبـى![1]

فقد برعت السيدة صفية فى هذه القصيدة عند ما رثت النبى ﷺ، فقد رأينا من خلال ألفاظها المجال الفسيح للنواح والبكاء، وانطلقت فيها عواطفها، المتأججة الصادقة، ولجأت إلى دموعها عندما قسا عليها الدهر واشتد، وأنها لتوالى بكاءها وتستطيله على الحبيب ﷺ وهنا تجد العمة نفسها، وتصغى إلى نجوى قلبها وحنين روحها، وتوغر فى أغوار ذاتها، وبهذا وضعت السيدة صفية فى ديوان الشعر العربى الصورة المفتقدة لرثاء المرأة لرسول الله ﷺ، فالمرأة تغلب عليها العاطفة والرقة وتهتز أوتار قلبها للموت أكثر من أى كائن آخر، لا سيما وهى التى تعانى من ألم الإنجاب (الولادة) كثيراً، فلا عجب أن تحس بالفقد أكثر من غيرها. وإذا كان الرجل يستطيع أن يلوذ بالصبر كثيراً، فإن المرأة تعجز عن ذلك أحايين كثيرة، وقد أتيح للسيدة صفية أن تعزف على ذلك الوتر العميق فى وجدان كل مسلم، إنه الحزن والأسف والوجدان على فقد نبى الهدى والرحمة والحق ﷺ، والشاعرة فى هذه القصيدة لا تفتأ تعزف على هذا الوتر، ولا يغيب عنها لحظة واحدة، فهو الشجن الجانح فى أغوار المرأة، والعمة على وجه الخصوص.

ومن الملاحظ أن كل قصائد السيدة صفية وغيرها من قصائد النساء فى هذا الغرض، تصدر من ذلك الحزن والألم والأسى الموغل فى العمق،

(١) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد كاتب الواقدى، ج٢، ص ٩٤، ٩٥. وكذا سمط العوالى فى أبناء الأوائل والتوالى، عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامى المكى، ج٢، ص ٢٣٧. وكذا حياة الصحابة، محمد يوسف الكاندهلوى، ج٢، ص ٣٢٨، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان. وكذا شعر الدعوة الإسلامية فى عهد النبوة والخلفاء الراشدين عبد الله بن حامد الحامد، ص ٤٢٢، ٤٢٣.

كاشفة عن الحجب والأستار، وعندما تقرأ هذا الشعر نجد أنفسنا بقدر ما يتاح لنا من اتصال بأعماقنا، ووعى لذاتنا، وإصغاء إلى خفى مشاعرنا، بين هذه الأصداء الوجدانية المشحونة بالشجن، إنه ذلك النقم الحزين القاسى المعبر عن هموم وأشواق كبار، المترجم عن مشاعر صفية، فهو مسجل لوقع الوجد على حس عمة تجد نفسها أمام كبرى المصائب والكوارث فصدمة الموت – خاصة لرسول الله – ﷺ، تثير مشاعر وأحاسيس كل بنى البشر من المسلمين، والحزن عليه لا يختص به إنسان دون آخر، وإن لم يملكوا جميعاً وسيلة التعبير عن هذا الألم والحزن العميق، لكن ليس كل إنسان فى قدرته أن يوغل فى أعماق الذات الإنسانية ويكشف عنها الحجب، ويصغى إلى خفى انفعالاتها لهذا الخطب العظيم، كما فعلت السيدة صفية، وأخواتها الشاعرات اللاتى رثين رسول الله ﷺ.

وقد برعت السيدة صفية فى هذه القصيدة وأجادت فى رسم الصورة الحزينة بتلك الكلمات المعبرة، الصادقة، فقد بدأتها بقولها: "لهف نفسى" أنه التلهف والحسرة واللوعة لهذا الخطب الجسيم، الذى جعلها تعيش ساعات الليل فى أرق وقلق كالتى سلب منها أغلى شئ فى حياتها، وتلك الهموم وهذه الحسرات التى لازمتها عندما علمت أن المنية قد وافت الرسول ﷺ، وأن العمر قد انقضى، والكتاب بلغ أجله ورأت الرسول ﷺ فى أكفانه، فمن شدة هذه الفجيعة شاب رأسها وشعر قذالها، وأورثت القلب حزناً طويلاً، فهو يدق كالمرعوب.

وتعاود السيدة صفية شريط ذكريات الماضى والنبى ﷺ، بينهم وتقرر حكماً مؤداه استحالة الحياة بعده، فهى لا تتصور العيش بعد فقد المصطفى ﷺ، وهذا المعنى والحكم ينطق به بيتها الذى تقول فيه:

ليت شعرى! وكيف أُمْسى صحيحا بَعْدَ أَنْ بينَ بالرسولِ القريب؟

ورغم هذه الحسرات وكثرة تلك الأنات والزفرات، وذلك الرثاء الجيد القوى الذى يدل على عظم حزن السيدة صفية، وكثرة بكائها، تقول أننى لا أستطيع أن أعبر عن حزنى كما ينبغى أن أعبر عنه، فاللسان عاجز والكلمة قاصرة، اللسان عاجز عن التعبير والنطق، والكلمة قاصرة عن التصوير فحزنى وألمى أقوى ،اشد من أن تصوره هذه الألفاظ، فلا يعلمه إلا الله سبحانه وتعالى.

وهذا المعنى ينطق به بيتها الذى تقول فيه:

فإلى الله ذاك أَشْكو! وَحَسَّبى يَعْلَمُ اللهُ حُوْبى ونَحِيبى!

وفى قصيدة أخرى للسيدة صفية تصور لنا فيها فجيعتها وفجيعة المسلمين فى هذا الخطب العظيم تستخدم فيها الألفاظ الموحية لهذا الغرض، وتحاول صفية رضى الله عنها أن تخفف من وطأة المصيبة على قلبها فتطلب من السيدة فاطمة ابنة الرسول ﷺ أن تبكى معها على فقد نور محمد عليه الصلاة والسلام فالأرض أصبحت موحشة منكوبة، وأصبح جديراً أن تبكى العجوز والشيخ والناس ومكة والجبال، ثم تحث عينيها على البكاء وسكب الدموع فى هذا الموقف الذى يستحق ذلك فتقول:

أَفَاطِمِ بَكِى وَلاَ تسْأمى بُصبْحك مَا طَلَع الكَوْكَبُ!
هُوَ المرْؤُ يُبْكى وَحُق البُكاءُ! هُو الماجدُ السَّيِّدُ الطَّيِّبُ!
فَأَوْحَشتِ الأرْض مِن فقْدهِ وَأىَّ البَرية لا يُنْكَب؟
فمَا لى بَعْدك حَتَّى المَمَا ت إلاَّ الجَوَى الدَّاخلُ المُنضبُ[1]
فَبَكِى الرَّسُول! وحُقَّتْ لَهُ شهُودُ المَدِينَة والغُيَّبُ!

(١) الجوى: الحزن. المنصب: المتعب.

لَتبْكيـــكَ شَـــمْطاءُ مضْـــرورَة إذا حُجـــب النَّـــاسُ لا تُحْجَـــبُ[1]
لِيَبْكيـــكَ شـــيْخ أَبـــو ولْـــدَة يَطـــوف يعقْوَتِـــه أَشْـــهَبُ[2]
ويَبْكيـــكَ رَكْـــب إذَا أرْمَلُـــوا فَلَـــمْ يُلْـــفَ مَـــا طَلَـــبَ الطُّلَّـــب[3]
وَتْبكـــى الأَبَـــاطِحُ مِـــنْ فَقْـــدِهِ وَتَبْكِيـــهِ مَكَّـــةُ والأَخْشَـــبَ[4]
وَتَبْكـــى وَعِـــيرَةُ مِـــنْ فَقْـــدِهِ بُحـــزْنِ وَيُسْـــعدُهَا الميثَـــبُ
فَعَيْنِـــى مَالَـــك لا تـــدْمَعِينَ؟ وحُـــقَ لِـــدَمْعِك يُسْتَسْـــكَبُ[5]

بدأت السيدة صفية قصيدتها بنداء أحب الخلق إلى رسول الله ﷺ هى السيدة فاطمة الزهراء – رضى الله عنها – وأمرتها أن تبكى ولا تمل هذا البكاء من إقبال الليل وطلوع النجوم إلى الفجر وهذا كناية عن طول البكاء ووقته فهى تقصد ألا تكف عنه طيلة حياتها فى ليل أو نهار، لعلها تنفس عن حزنها وألمها، وتجد فيه سلوة وعزاء، لأنها فقدت أشرف خلق الله تعالى، فهو جدير بالبكاء من الجميع، ويجب أن نبكى عليه وتحزن ولا يفارقنا هذا الحزن أبداً، فهو السيد الماجد، الطيب الطاهر وقد أوحشت الأرض من فقده، بل لقد بلت عليه هذه الأرض التى لا تعقل، ولا يوجد أى إنسان مسلم فى هذه البرية إلا وقد نكب بموته، وأصابه الهلع والحزن والألم. ثم تعود الشاعرة إلى نفسها قائلة "**فمالى بعدك حتى الممات**" إلا الحزن الشديد والتعب والألم النافذ داخل القلب، ويشاركنى فى هذا الحزن وتلك اللوعة أهل المدينة الشاهد منهم والغائب فهى تعبر عن الجماعة بعد نفسها، فيجب أن يحس هؤلاء ومن

(١) الشمطاء: العجوز المبيضة الشعر، المضرورة: التى أصيبت بالضرر.
(٢) الولدة بكسر الواو: الأولاد، والعقوة: الساحة، والأشهب: الجدب والفقر.
(٣) أرملوا: نفد زادهم.
(٤) الأخشب: جبل مشرف على مكة، وهما أخشبان: أبو قيس والأحمر مطيفان بمكة.
(٥) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد كاتب الواقدى، ج٢، ص ٩٥، وكذا نهاية الأرب فى فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى، ج١٨، ص ٤٠٤.

يأتى بعدهم بهذا الإحساس الفظيع وذلك الشعور الحزين، وخير دليل على ما نقول أن السيدة صفية قد صبت هذه المشاعر الحزينة فى قصيدتها، فبدأت كل بيت من هذه الأبيات بلفظ البكاء، فهى لم تتمالك نفسها، واسترسلت فى البكاء ليشاركها جميع المسلمين بمختلف طبقاتهم وأعمارهم فى هذا البكاء والحزن، لا فرق بين ذكر وأنثى ولا كبير وصغير فمثلاً تقول:

لَتبْكيـــكَ شَـــمْطاءُ مضْـــرورَة إذا حُجـــب النَّـــاسُ لا تُحْجَـــبُ

أى لتبكك هذه العجوز المبيضة الشعر التى أصابها الضر والأسى بعد أن فقدت من يسأل عنها ويمد لها يد المساعدة والعون وأيضاً ليبكك هذا الشيخ الفانى، وذلك الركب المحتاج الذى نفد زاده، وكل هؤلاء كنت لهم عوناً وملاذاً فحق لهم أن يبكون عليك وأن يسكبوا الدموع بغزارة.

ثم ترسم لنا السيدة صفية لوحة فنية رائعة فتجعل الجماد هو الآخر يحس بعظم الكارثة ويشاركها فى هذا الحزن والبكاء فيقول:

وَتْبكـــى الأَبَـــاطِحُ مِـــنْ فَقْـــدِهِ وَتَبْكِيـــــهِ مَكَّـــــةُ والأَخْشَـــــبَ

فالجماد الذى لا يحس ولا يعقل جعلته يدرك مدى هذه الفجيعة عندما فقد الحبيب ﷺ، وهذا يدل على صدق عاطفة الشاعرة ومعايشتها لتجربتها الشعرية، وتلك الفكرة التى تريد أن تجعل الناس يعيشونها معاً، فإذا كان الجماد الذى لا يعقل قد بكى فقده ﷺ، فكيف يكون شعور الإنسان المسلم العاقل، الذى بعث هذا الرسول بالخير والهدى والنور من أجله؟!

إن الحزن الذى يسيطر على شعور السيدة صفية أصيل لأنها قد ترثى فى أحب الناس إليها وهو ابن أخيها، وهذا الشجن المر الذى يفيض به قلبها ليس إلا وحياً من عواطفها الصادقة، وشعورها بالضياع والهوان هى

والأمة الإسلامية جمعاء، فقد فقدوا ملاذهم ونصيرهم الوحيد، والذى لا يستطيع أحد أن يملأ ما تركه من فراغ.

وفى قصيدة أخرى تستدعى صفية - رضى الله عنها - دموع عينيها لتعبر عن وجدها وحزنها وألمها لفقدان الحبيب المصطفى الذى تجمعت فيه صفات الهدى والتقى والنور والطهارة فقالت تخاطب عينيها:

أَعَيْنَـيَّ جُـوَدا بـدَمْع سَـجَمْ ... بُبـادرُ غَرْبـاً بمَـا مُنْهَـدِمْ[1]
أَعَيْنَـى فاسْـحَنْفرَا وَاسْـكبَا ... بِوَجْـد وَحُـزن شَـدِيدِ الأَلَـمْ[2]
عَلـى صَـفْوَةِ الله رَب العِبَـادِ ... وَرَب السـمَاء وَبـارى النَّسَـمْ
عَلـى المُرتضـى للْهُـدى وَالتُّقَـى ... وَللرُّشْـد وَالنُّـور بَعْـدَ الظُّلَـمْ
عَلَـى الطَّـاهِرِ المُرْسَـل المُجْتَبَـى ... رَسُـول تَخيَّـرَهُ ذو الكَـرَمْ[3]

وكعادة السيدة صفية فى مراثيها للمصطفى ﷺ، تخاطب عينيها وتحثها على الدمع، وأن يجودا به فى سخاء، وبحرقة وحزن شديد، على صفوة الله رب العباد ورب السماء، وخالق كل شئ، وهذا تشريف للنبى ﷺ من الله تعالى له، فقد اختاره واصطفاه الله سبحانه وتعالى وجعله أفضل خلقه، فهو مرتضى ومجتبى من عند الله تعالى - للهدى والتقى والرشاد، والنور الإيمانى بعد ظلام الكفر، وليقود العالم إلى الأمان ويهدى البشرية إلى نور الإسلام الذى يبدد الظلمات[4].

(١) السجم: الدمع الذى يقطر، الغَرْبُ: عرق فى العين يسقى لا ينقطع.
(٢) اسحنفرا: اكثرا من دمعكما.
(٣) الطبقات الكبرى، محمد ن سعد كاتب الواقدى، ج٢، ص٩٥. وكذا شعر الدعوة الإسلامية فى عهد النبوة والخلفاء الراشدين جمعه وحققه ووثقه وشرح غريبه وترجم لأعلامه ووضع فهارسه عبد الله بن حامد الحامد، ص ٣٩٤، ٣٩٥. وكذا الشعر الإسلامى فى صدر الإسلام عبد الله الحامد، ص ٢٤١، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
(٤) شعر عصر صدر الإسلام من منظور التطور الإسلامى، محمد عادل الهاشمى، ص ٧٢، ٧٣، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م مكتبة المنار، الأردن، الزرقاء.

وهو الطاهر المطهر الذى أرسله ربه، وتعهده برعايته، ليكون للأمة الإسلامية قائداً، وللناس هادياً ومبشراً ونذيرا، ومن هنا فلابد للعين أن تجود لفقده بالدمع الغزير الذى لا يتوقف ولابد للقلب أن يحزن الحزن الدفين، لأن الركن الشديد الذى تعتمد عليه الأمة الإسلامية قد تهدم، فأصبحت تائهة، تتخبط فى بحار من الحيرة.

وهنا نرى براعة السيدة صفية فقد استطاعت أن تفصح عن تجربتها الشعرية، وتعبر عن عاطفتها الجياشة عند تلك المصيبة، فقد صورت شعورها الذاتى الفردى، فالرسول ﷺ ابن أخيها، البار بها، وهى عمة فى مقام أم فلم لا تبكى تلك الرعاية والنبوة؛ كما صورت شعور المجتمع الإسلامى كله، فالوجد والحزن الشديد، والألم النافذ إلى الأعماق قد أصاب كل مسلم، أحب الرسول، لفقد صفوة الله من خلقه.

ومن خلال معجم السيدة صفية الذى استخدمته فى توضيح هذه الصورة وإخراج هذه التجربة تلاحظ أنها قد كانت موفقة إلى حد كبير فى اختيار هذا المعجم، فقد استطاعت توظيف كل كلمة فيه لتقوم بدورها فى إبراز هذه الصورة، فقد اتحدت كل كلمة مع أختها لتعطينا هذه الصورة الحية التى نطقت بها عاطفتها وصورها شعورها فترى مثلاً كلمة (فاسحنفرا) وهى كلمة قوية تدل على عظم الكارثة، وتحتاج إلى قاموس ليفسر لنا معناها، وهو المطر الكثير الصب أو الواسع والمقصود بها هنا أكثرا من دمعكما.

كما أنها استخدمت فى نفس الوقت بعض الألفاظ السهلة من مثل "وجد وحزن، وصفوة، ورب السماء" فقد استطاعت السيدة صفية أن تظهر براعتها فى عنايتها باختيار هذا المعجم بين القوة والسهولة لتجعلنا نعيش معها هذه التجربة.

وتحاول السيدة صفية رضى الله عنها النوم فلا تستطيع لأن الحزن أرق جفونها وأشاب رأسها فقد رسول الله ﷺ ذلك النبى الذى جاء بالنور فكان كريماً نجيباً معيناً للمعدمين والمضطهدين والغرباء فقالت تصف حالها:

أَرَقْتُ فبتُّ ليلى كالسليبِ ... لوجدٍ فى الجَوَانحِ ذى دبيب!
فَشَيَّبَنى وَمَا شَابَت لِدَاتى ... فَأَمْسَى الرَّأْسُ منِّى كالَعِيب
لِفقْد المُصْطَفى بالنُّور حَقاً ... رَسُول الله مالَكَ مِنْ ضَرِيب
كريم الخِيم أَرْوَعَ مَضْرَحِى ... طَويل الباعِ مُنْتَجَبٍ نجيبِ!
بِمَالِ المُعْدِمين وَكل جَأر ... ومَأْوَى كُلِّ مُضطِهَدٍ غَريبِ
فَاما تُمْسِ فى جَدَث مُقِيماً ... فقدْما عشت ذَا كرَم وطيب!
وَكُنْتَ مُوَفَّقاً فى كُل أَمْرٍ ... وَفِيما نَابَ مَنْ حَدَثِ الخُطُوبِ[1]

حينما تتأمل هذه الأبيات ندرك أن السيدة صفية لم تتمالك نفسها أمام هذه المصيبة، فقد انطلقت فى شاعرية ثائرة، وعواطف ومشاعر فياضة، فقد أرقها الحزن والوجد، وباتت وقد سلب منها كل شئ حتى النوم من العيون، فهى مكسورة الجناح ذليلة الجانب، وسبب ذلك هذا الوجد والألم الذى استفحل فى قلبها وتمكن من جميع أعضاء جسمها الداخلى.

ثم ترسم لنا السيدة صفية صورة خارجية لنفسها بعد أن رسمت تلك الصورة الداخلية، فقد شابت رأسها قبل لداتها وأقرانها فى العمر، ورأسها أصبحت كسيب النخل الذى يترنح من شدة الرياح فهى تدور بين الأفكار والذكريات، وكل ذلك:

لِفقْد المُصْطَفى بالنُّور حَقاً ... رَسُول الله مالَكَ مِنْ ضَرِيب

(١) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد كاتب الواقدى، ج٢، ص ٩٥، ٩٦.

إن الحزن المشتعل فى نفس السيدة صفية أثر فقدها للحبيب المصطفى ﷺ، قد امتزج بها امتزاجاً كلياً فى الباطن والظاهر، فحول فكرتها إلى العمق بدلاً من السطحية، وجعلها تصدر فيها عن عاطفة جياشة صادقة، هذه العاطفة قد اشتعلت بالجراح وأحست حرارة الفقد واللوعة والألم، فهى لعاطفة إنسانية عميقة، تجعل من الحزن ما يصهر النفوس ويقويها، ويجعلها فى موقف بين الصبر والشعور بمرارة الفراق.

وهذا ما جعل الشاعرة تسرد بعضاً من فضائل النبى ﷺ، فهو كريم الطبيعة والسجية فى ظاهره وباطنه فهو غير متكلف رائع بكل ما تحمل هذه الكلمة من معنى، طويل الباع وهو كناية عن جوده وكرمه وسخائه، وبذله لكل ما يصل إلى يده من مال، للمحتاجين، ويقف بجانب المضطهد المظلوم الذى يعيش بعيداً عن أهله فلا عشيرة أو قرابة، فكان هو مسنده وقوته، يحمى الجار ويحض على إكرامه وعدم إيذائه.

ومن خلال كل هذه الصفات التى عددتها الشاعرة نحس بصدقها، بل وصدق جميع المسلمين تجاه هذا الفقد والذى تجمع فى لحظة فاصلة قاسية، بين عالمين مختلفين، عالم الجسد وعالم الروح، وماذا تجدى الكلمات، وقد أوشك أن يدخل هذا الحبيب إلى مقره الأخير فى عالم الخلود:

فَاما تُمْسِ فى جَدَث مُقِيماً فقدْما عشت ذَا كرَم وطيب!

وبعد أن تهدأ السيدة صفية بعض الشئ وتثوب إلى رشدها تراها ترسم صورة رائعة مشرقة للنبى ﷺ وهى صورة سلوكية له، توحى فى جملتها باستيعاب الشاعرة لسيرته العطرة، وتعبر فى ألفاظ قليلة عنها فتقول:

وَكُنْتَ مُوَفَّقاً فِي كُلِّ أَمْرٍ وَفِيما نَابَ مَنْ حَدَثِ الخُطُوبِ

أى أنه ﷺ، كان موفقاً فى كل أمر من أمور المسلمين الدينية والدنيوية.

وفى قصيدة أخرى تتابع صفية رضى الله عنها البكاء وذكر خصال رسول الله ﷺ، فتجد أن العين ستتوقف عن الندب بعد النبى الذى زوده الله سبحانه بالقرآن الكريم وزرع فيه صفات الرحمة والرأفة والصدق فجعله مشفقاً ناصحاً، فقالت:

عَيْنِ جُودى بدَمْعَةٍ تُسكابِ للنبيِّ المُطَهَّرِ الأوَّابِ
وَانْدُبى المُصْطَفَى فَعُمِّى وَخُصِّى بِدَمُوعٍ غزيرَةِ الأَسْرَابِ
عَيْنِ مَنْ تَنْدُبينَ بَعْدَ نبيٍّ خَصَّهُ اللهُ رَبُّنا بالكتَاب
فَايَحٍ خاتِمٍ رَحِيمٍ رَؤوفِ صَادق القِيل طَيِّب الأثْواب
مُشْفِقٍ ناصِحٍ شَفِيقٍ عَلَيْنَا رَحْمَةٍ مِنْ إلهنا الوَهَّابِ
رَحْمَةُ اللهِ وَالسَّلامُ عَلَيْهِ وَجَزَاهُ المَلِيكَ حُسْن الثَّوَابِ[1]

فمن يتأمل هذه الأبيات يرى فيها صورة الحزن والألم على رسول الله ﷺ التى حشدت لها صفية – رضى الله عنها – هذه الألفاظ الشجية، وقد انبعث منها الحزن والحسرة والأسى، وقد استهلتها – كبعض قصائدها الأخرى – بحث العين على أن تسكب الدموع الغزيرة، على هذا النبى المطهر الأواب.

ثم نراها ترسم لنا صورة أليمة لفداحة هذه المصيبة وذلك عن طريق تكرار لفظ الندب بصيغة الأمر أولاً ثم بصيغة الحال والاستقبال ثانياً.

(١) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد كاتب الواقدى، ج٢، ص ٩٦.

فإذا لم تندب السيدة صفية هذا الرسول ﷺ، فمن تندب إذن؟ ومن يساويه فى درجته أو فى مكانته؟ لا يوجد أحد يساوى أو يقارب النبى ﷺ فى مكانته أو درجته، فقد خصه الله عز وجل بالكتاب وهو القرآن الكريم، وأيضاً فهو النبى الفاتح الخاتم لجميع الأنبياء، الرؤوف الرحيم بالمؤمنين، وهو الصادق فى كل ما ينطق ويتكلم، وكذلك وهو الشفيق الناصح لأمته، رحمة للعالمين من الله الوهاب الكريم، ومن الملاحظ أن السيدة صفية قد استمدت ألفاظها ومعانيها من القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف، والدليل على ذلك أن هذه الأبيات فيها تضمين واقتباس من القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف، فمن هذا مثلاً "فاتح خاتم" تشير إلى الحديث الشريف الذى يقول: "... **أنا الفاتح الخاتم** ..." وقولها "رحيم رؤوف" تشير إلى قوله تعالى: ﴿بالمؤمنين رؤوف رحيم﴾ وقولها: "صادق القيل" تشير إلى قوله تعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى﴾ وقولها: "رحمة من إلهنا" تشير إلى قوله تعالى: ﴿وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين﴾.

والسيدة صفية فى هذه الأبيات قد سيطرت عليها الروح الإسلامية، التى تلقتها وتعلمتها من رسول الله ﷺ، وقد أخذتها من القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف كما بينا، وفى نهاية المطاف تقول لنا أن المصيبة عامة، وليست خاصة بأقربائه فقط، فهو ﷺ قد أسدى للجميع الخير والمعروف، فنسأل الله عز وجل الرحمة له والسلام عليه، وجزاه الله عنا وعن المسلمين والإسلام خير الجزاء وحسن الثواب.

وتزداد الهموم على السيدة صفية رضى الله عنها وتكثر أحزانها عندما ارتحل المصطفى إلى جوار ربه فتبكيه وتندبه قائلة:

عَـيْنِ جُـودِى بدَمْعَـة وَسَـهْودِ وَانْـدُبِى خَيْرَهَـا لـكِ مَفْقُـود
وَانْـدُبى المُصْـطَفى بحُـزْنٍ شـديدٍ خَـالَط القلْـبَ فَهْـوَ كَـالمَعْمُودِ
كِـدْتُ أَقْضِـى الحَيَـاةَ لمَّـا أَتَـاهُ قَـدرَ خـطَّ فـى كتـابٍ مَجيـد
فَلَقَـدْ كَـانَ بالعَبـاد رَءوفـاً وَلَهُـمْ رحْمَـةً وَخَـيرَ رَشـيدِ
رَضَـى اللهُ عَنْـهُ حَيًّـا وميتـا وجَـزَاهُ الجِنَـانَ يـومَ الخُلُـودِ[1]

فقد استهلت السيدة صفية أبياتها بهذا المطلع الذى تعودت عليه وأصبح لديها ركناً ثابتاً فى رثائها لابن أخيها، وهو مخاطبة العين وحثها على سكب الدموع الغزار، ومن الملاحظ أنها كررت هذه الألفاظ التى تخاطب بها العين فى أكثر من موضع، وفى أبيات متتالية لقصيدة واحدة – كما مر بنا – وهذا وإن دل إنما يدل على صدق رثائها وعدم تكلفه، لأنه نابع من حزنها العميق وحرقتها ولوعتها، فهى تندب وتبكى خير فقيد، وكادت السيدة صفية أن تودع الحياة عندما أتاه الأجل، ولبى نداء ربه، وما كان له أن يتخلف عنه لأن الله جعل لكل أجل كتاب.

وأمام هذا القدر المحتوم الذى سجل فى اللوح المحفوظ، لم تملك صفية – رضى الله عنها – إلا البكاء والندب والنواح، ولم تملك كذلك إلا الحزن الشديد، الذى خالط القلب وتمكن منه وتربع فيه، فكاد يقضى عليه ويقطع أوردته وشرايينه.

(١) الطبقات الكبرى محمد بن سعد كاتب الواقدى، ج٢، ص ٩٦، وكذا السيرة النبوية الخالدة سيرة رسول الله ﷺ، محمد عبد المنعم خفاجى، ص ٤٦٧، الطبعة الأولى. وكذا شعر الدعوى الإسلامية فى عهد النبوة والخلفاء الراشين، عبد الله بن حامد الحامد، ص ٤٠٤، ٤٠٥، وكذا نساء حول الرسول والرد على مفتريات المستشرقين، محمود مهدى الاستانبولى، مصطفى أبو النصر الشلبى، ص ١٩٦، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، مكتبة السوادى للتوزيع، جدة، وكذا سير أعلام النبلاء للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى حقق نصوصه شعيب الأرتؤوط، ج٢، ص٢٧١.

ومما لا شك فيه أن هذه الصورة التى رسمتها الشاعرة تثير المشاعر وتحرك الوجدان وتشعل نار العواطف، ويكفى أنها صورة تمثل تجربة واقعية عاشتها الشاعرة، وأحست بها فى داخل نفسها، الموتورة، وهذا ما جعلها ترسم لنا هذه الصورة الأليمة المؤلمة، بذلك الإيقاع الحزين الذى نكاد نراه ونحسه ونلمسه، لقد تملكها الحزن الشديد وسيطر عليها، فكثر بكاؤها وأنينها، وتمنت الموت قبل وقوع هذه الكارثة والفاجعة، ولكن هذا قدر الله الذى خطه فى الكتاب المجيد قبل أن يخلق هذا العالم وهذه الدنيا، ولا مبدل لكلمات الله.

وقد ختمت صفية – رضى الله عنها – أبياتها بتوديع الرسول ﷺ، بهذا الدعاء وطلبت له من الله الرضوان فى حياته وبعد مماته، وأن يجزيه الله تعالى خير الجزاء وهو يتمثل فى جنات النعيم يوم القيامة والخلود.

فالنبى ﷺ لم يكن فقداً عادياً انه غير الفاقدين الجديرين بالحزن الشديد. فقد تمتع بصفات الرأفة والرحمة والرشاد، وقد جعلها موته ﷺ تعيش فى هموم متلاحقة لأنها كانت ترى فيه العفاف والبر والصدق والهداية.

وفى قصيدة أخرى تقول السيدة صفية – رضى الله عنها –:

آبَ لَيْلَـــى عَلَـــىَّ بالتَّسْـــهَاد ... وَجَفَا الجَنْـبَ غَيْـرُ وَطْءِ الوِسـادِ
وَاعْتَرَتْنـى الهُمُـومُ جـدّا بـوَهْنٍ ... لأُمُـــورٍ نَـــزِلْن حَقًّـــا شِـــدَادِ
رَحْمَـــة كـــانَ للبَرِيَّـــة طـــرًّا ... فَهَـــدَى مَـــنْ أَطَاعَـــهُ للسَّـــدادِ
طَيِّـــبُ العُـــودِ والضَّـــريبَة والشِّـــ ... ـيمَ مَحْض الأَنْسَابِ وَارى الزَّنَادِ[1]
أَبْلَـــجُ صَـــادقُ السَّـــجيَّةِ عـــفٌّ ... صَـادِقِ الوَعْـد منتهـى الـروادِ![2]
عَـاش مَـا عَـاش فـى البَرِيَّـة بَـرًّا ... وَلَقَـــدْ كَـــانَ نهْبَـــةَ المُرْتَـــادِ

(١) طيب العود: كريم الأصل، وارى الزناد: شجاع منجد.
(٢) أبلج: مشرق الوجه.

ثُــمَّ وَلَّــى عَنَّــا فَقِيــداً حَميــداً فجــزاهُ الجنَــانَ رَبُّ العِبَــادِ[1]

فقد صدرت هذه القصيدة عن استعداد الشاعرة الفطرى تجاه هذا الموقف الأليم، فجاشت عواطفها بهذه الأناة الحائرة التى جعلتها تجافى الفراش ولم تذق طعم النوم.

وإذا ما تأملنا القصيدة وقرأناها بتمعن وجدنا صفية – رضى الله عنها – قد استعملت اللفظ المناسب بما تشتمل عليه هذه الأبيات من كلمات مؤثرة غاية فى التأثير النفسى، وهذا الأسلوب الفنى لم يقصده صفية – رضى الله عنها – قصداً، وإنما أملتها عليها الفكرة المسيطرة والتجربة الشعرية الحقيقية التى عاشتها، كذلك هذا الخطب الجسيم المؤثر فى مشاعرها ووجدانها، بالإضافة إلى ذلك لا ننسى الملكة الشعرية التى فرضت على الشاعرة نفسها فجعلتها توظف هذه الكلمات وتلك التعبيرات فى أداء رسالتها فى مثل هذه القصيدة.

ومن الكلمات المؤثرة فى القصيدة على سبيل المثال قولها "آب ليلى" وكأن الساعة التى تمر منه ترجع وتعود فهو لن ينقضى، أو ربما قصدت أن عهد الجاهلية سيعود ثانية بعد فقد الحبيب ﷺ، وهذا تعبير له دلالاته من وجهة النظر الإسلامية فى عهدها الأول، فقد ارتدت بعض القبائل. ومثل قولها "جفا الجنب، وطء الوساد" فهذا دليل على القلق النفسى الرهيب والمعركة الفكرية الدائرة فى داخل أعماق الشاعرة والتى جعلتها لا تضع جنبها على الفراش ولم تذق طعماً للنوم وهى تتخيل وتتصور الهموم الكثيرة

(١) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد كاتب الواقدى، ج٢، ص ٩٦. وكذا شعر عصر صدر الإسلام من منظور التطور الإسلامى محمد عادل الهاشمى، ص ٧٣. وكذا لشعر فى رسول العالمين من غير أصحاب الدواوين جمع وتحقيق محمد الأطرش، ص ٣٩، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، دار المعالى.

والضعف الشديد الذى سوف يدب فى جسد الأمة الإسلامية عندما تفقد الحبيب المصطفى ﷺ، وتتراكم عليها الأهوال وتنزل بها الشدائد وهذا المعنى يظهر بوضوح فى تعبيراتها "اعتراء الهموم، الوهن، شداد .."

فهذه التعبيرات والألفاظ تجعل السامع أو القارئ يعيش فى جو مفعم بالحزن والقلق واليأس لفقد ذلك الرسول الكريم ﷺ، والذى كان رحمة للخلق أجمعين، وهدى من أطاعه إلى السداد والرشاد وإلى الصراط المستقيم.

وبهذه التعبيرات وبتلك الألفاظ استطاعت صفية رضى الله عنها أن تصور وترسم لنا عالمها النفسى المفعم بالحزن واللوعة والأسى والضيق والقلق، وأن تفى بالغرض الذى من أجله قالت هذه القصيدة، وتوحى للسامع أو القارئ بهذا الجو الكئيب الحزين، لأن ذهن السامع أو القارئ المسلم فى مثل هذا الرثاء تعود النفاذ والتعمق فى الصورة الحسية الواقعية، إلى دلالتها النفسية، وارتباطاها بصاحبها.

وهذا ما جعل السيدة صفية تنسب لليل فى هذه الأبيات عدم الأمان والاستقرار النفسى، فهو يخيم عليها بسواده، وتنزل فيه بها الهموم والأحزان فلا يهدأ لها جفن ولم تغمض لها عين، أنه يؤلمها بضرباته وغمزاته، ويعود وقد أفعم قلبها بالحزن الهموم الكثيرة التى أصابتها بالضعف الشديد والهوان.

وهنا نستطيع أن نحس بالصدق الفنى والواقعى، والذى استطاعت صفية رضى الله عنها أن تعبر عنه بكل أحاسيسها ومشاعرها لتجعلنا نعيش هذا الواقع المر وفى ذلك الجو الذى تغشاه الظلمات ويسيطر عليه الحزن واللوعة والحسرة، بقدر مكانة هذا الحبيب وعلو درجة المرثى ﷺ، عند الله تعالى الذى اختاره إلى جواره وعند الناس الذين أسدى إليهم فى حياته كل معروف هذه واحدة، والثانية تلك اللوحة المعبرة، والصورة الحية الناطقة التى

اشتملت عليها هذه الأبيات فى تجسيم شخصية الحبيب المصطفى ﷺ، وما كان له من خصال كريمة فاضلة فاق فيها جميع الخلق لأن الله قد اختصه بها، ومنها: الرحمة الكاملة الشاملة للبرية وكذلك شريعته الغراء التى هدى بها من اتبعه إلى الرشاد والسداد، وقاده بها إلى النجاة والسلام، وهذا الأصل الطيب الذكى الشريف الذى رفعه الحبيب ﷺ، فصار النسب به من أشرف الأنساب.

من هذه الخصال كذلك صدقه وأمانته، فهو لا يقول إلا صدقا حتى قبل بعثته ﷺ – سماه العرب "**الصادق الأمين**" ومن خصاله أيضاً عفته، فلم ينظر إلى محرم عليه، وكرمه وجوده الذى ينتهى عنده كل الرواد ومن يطلب العطاء، إلى غير هذه الخصال التى اشتملت عليها تلك اللوحة الفنية الرائعة.

وقد اتحدت هاتان الصورتان بكل أجزائهما الداخلية والخارجية لتعطينا صورة كلية شاملة متكاملة، تجسم لنا هذا الخطب الجسيم الذى حل بالأمة الإسلامية فجعل الهموم تعتريها وتلازمها، والضعف والوهن يدب فى كيانها ووجودها، لنزول هذا الأمر الشديد، وهو فقد القائد العظيم، والرؤوف الرحيم والصادق الأمين.

وكعادة السيدة صفية عندما تختتم مراثيها فى الحبيب المصطفى ﷺ تثنى عليه وتدعو له وتطلب من الله أن يجزيه خير الجزاء وهو الجنات التى فيها النعيم المقيم فقالت فى نهاية الأبيات:

ثـــم ولى عنـــا فقيـــدا حميـــدا فجـــزاه الجنـــان رب العبـــاد

وهذه شاعرة أخرى ترثى رسول الله ﷺ، وهى هند بنت الحارث بن عبد المطلب رضى الله عنها تقول باكية:

يا عينِ جُودى بدمعٍ منكِ وابتدرِى كَمَا تَنَزَّلَ مَاءُ الغَيثِ فَانْثَعَبَا[1]
أَوْ فيضُ غَرْبٍ على عاديَّةٍ طُوِيَتْ فى جَدْوَل خَرِقٍ بالماء قدْ سَرِبَا[2]
لَقَدْ أَتَتْنى مِنَ الأَنباءِ فُعْضِلَة أَنَّ ابنَ آمِنَةَ المأْمُونَ قَدْ ذَهَبَا
أَنَّ المِبَارَكَ وَالمَيْمونَ فى جَدَث قد أَلْحَفوهُ تُرابَ الأَرْضِ والحَدَبَا[3]
أَلَيْس أَوْسَطكمْ بيتا وَأَكرَمكمْ خلا وعما كريما لَيسَ مؤتشَبَا[4]

والأبيات وإن بدأتها هند بنت الحارث بن عبد المطلب كعماتها الراثيات وخاطبت العين وأمرتها أن تجود وتنهمر بالدموع إلا أننا نجدها، قد أتت بصورة جديدة فى هذا الرثاء تغايرهن فيها، وهى صورة أقرب للفخر بنسبها، فالشاعرة كما هو واضح ابنة عم رسول الله ﷺ، فهى فى ذهول من نبأ رحيل المصطفى ﷺ، وقد خاطبت الناس فى البيت الأخير قائلة:

"أوسطكم بيتاً، أكرمكم خالا وعما كريما" فكأنها تسأل القوم الذين واروه التراب كيف يفعلون ذلك وهو أفضل الخلق بيتاً وكرماً، فهذا فخر بالنسب الذى نهى عنه الإسلام وكان الأجدر بها - كما فعلت عمتها - أن تشيد بمناقب وصفات النبى ﷺ ، من خلال القرآن الكريم، والحديث النبوى الشريف، وما أكثر هذه المناقب والصفات فيهما.

(١) انثعب: سار مع الأوية.
(٢) غرب: الماء الذى يقطر من الدلاء. عادية: الخيل المغيرة. خرق: فرجة، الشق فى الحائط أو الثوب. سربا: ذهبا.
(٣) جدث: قبر. الحدب: ما أشرف من الأرض وغلظ وارتفع ولا تكون الحدبة إلا فى قُبٍّ أو غلظ من الأرض.
قال الشاعر
يوما تظل حدابُ الأرض يرفعها من اللوامح تخليط وتزييلُ
(٤) أوسطكم بيتا: خيركم نسباً. مؤتشباً: الخليط من الناس.
الطبقات الكبرى، محمد بن سعد كاتب الواقدى، ج٢، ص ٩٦، ٩٧. وكذا شعر فى رسول العالمين من غير أصحاب الدواوين جمع وتحقيق محمد الأطرش، ص ١١، ١٢.

أما باقى الأبيات فيدل على تأثيرها الواضح لفقد هذا الحبيب، والحزن العميق عليه، وتخاطب العين وتحثها على أن لا تبقى دمعة واحدة تستطيع أن تزرفها، لأنه لا يوجد بعده من يبكى عليه، ثم أتت بتمثيل من الطبيعة المشاهدة وهو كلما لا تبقى قطرة ماء فى الجدول المخروق إلا وتسربت حتى لا تظل فيه قطرة واحدة فيجب على العين أن تكون مثله، ولو شبهت الشاعرة جدولها بالغربال لكان أجود، كما فعل الشاعر، "كعب بن زهير فى قصيدته "بانت سعاد ..."(١).

إن الشاعرة عندما أتاها نبأ هذه المعضلة، وسمعت الخبر المؤلم، وكان بمثابة ضربة السيف البتار على عنقها، حثت عينها وأمرتها أن تجود بالدمع الغزير، كما يسيل الغيث مدراراً، وقد اتسم تعبيرها عن الفكرة التى ألمتها وأحزنتها بالصدق الفنى النابع من أعماق النفس والوجدان، وكان هذا الإحساس دافعاً لها لتعبر عن هذه الحقيقة المؤلمة التى عاشتها فى داخلها، وعاشت أبعادها فى أعماق نفسها، فلم تتكلف الموقف ولم تتصنعه، وإنما جاءت أفكارها ترجمة لعواطفها، ولكن من هول الكارثة جاء هذا التعبير الذى نحس فيه بنبرة الفخر بالنسب الشريف، وقبله صورت الألم، وطلبت طلباً صريحاً من العين أن تجود بالدمع الغزير الذى يشبه الغيث فى تدفقه، وكان هذا نتيجة لصدق العاطفة وقوتها، وأيضاً صدق الإحساس لطول الحرمان واستحكام الألم الذى سوف تعيش فيه الشاعرة من بعد الفقيد ﷺ ولم تذكر من الصفات إلا الصفات العامة التى تميل إلى التعصب القبلى "عماً وخالاً".

(١) جمهرة أشعار العرب لأبى زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى شرحه وضبطه وقدم له الأستاذ على فاعور، ص ٣٦٦، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، دار الكتب العلمية بيروت لبنان.

والصفة الخاصة التى ذكرتها الشاعرة للنبى ﷺ، هى الأمانة، وقد كررتها فى بيتين متتالين ولا عجب أن الصفات الخاصة به ﷺ، كثيرة ومعروفة لدى الشاعرة لأنها ابنة عمه، ولكنها شدة الكارثة والمصيبة التى جعلتها تفقد التركيز، وترتيب الأفكار التى تريد أن تعبر عنها فى مثل هذا الموقف.

ونمضى مع راثيات النبى ﷺ، ونقف عند هذه الشاعرة وهى: هند بنت أثاثة بن عباد عبد المطلب بن عبد مناف أخت مسطح بن أثاثة وهى شاعرة قرشية اشتهرت فى الجاهلية، وأسلمت بعد بدر وبايعت النبى ﷺ روى لها ابن إسحاق وهى على الشرك، أبياتاً فى رثاء عبيدة بن الحارث بن المطلب أحد قتلى بدر، وكانت تعارض هند بنت عتبة فى أشعارها(١).

ومن الملفت للنظر أنه وقع فى يدى كتاب لأستاذنا محمد عبد الغنى حسن، وفيه بحث تحت عنوان "مراثى الشعراء للرسول عليه السلام" وفيه يطرح سؤالاً فى نهاية بحثه وهو "فمن أين هذه الهند المطلبية" التى جاء بها الباهلى الأشبيلى؟ ومن أين جاءت هذه الأبيات فى رثاء الرسول التى رواها صاحب "الذخائر والأعلاق" ونسبها إلى المزعومة هند بنت عبد المطلب؟ أحسن الله إلى من يدلنا على وجه الصواب فى هذه الأبيات، وفيما نقلناه من مراث فى رثاء نبى هذه الأمة العربية الكريمة محمد بن عبد الله"(٢).

(١) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد كاتب الواقدى، ج٢، ص٩٧. وكذا شعر فى رسول العالمين من غير أصحاب الدواوين جمع وتحقيق محمد الأطرش، ص ١١، وكذا نهاية الأرب فى فنون الأدب ، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى، ج١٨، ص ٤٠٦. وكذا الإعلام، خير الدين الزركلى نافع.

(٢) دراسات فى الأدب العربى والتاريخ محمد عبد الغنى حسن، ص ١٧١، الناشر الدار القومية للطباعة والنشر.

وقبل طرح هذا السؤال يذكر أستاذنا محمد عبد الغنى حسن أبيات هند هذه والتى أخطأ فى نسبها نقلاً عن صاحب كتب الذخائر الأعلاق، ولو رجع أستاذنا إلى كتاب الإصابة أو أسد الغابة فى معرفة الصحابة أو أعلام النساء أو الأعلام لخير الدين الزركلى أو طبقات ابن سعد لعرف أن هندا هذه ليست كما زعم الأشبيلى، ولم تكن عمة للنبى ﷺ، ولكن الصواب فى الأمر كما قلنا أنها "هند بنت أثاثة بن عباد بن عبد مناف أخت مسطح بن أثاثة" فقد اختلط على الأشبيلى وعدها من بنات عبد المطلب، وسار على ذلك أستاذنا محمد عبد الغنى حسن.

ومن هنا أردت فى هذا البحث أن أرد على هذا السؤال وأقول أن الأبيات التى أشار إليها أستاذنا لهند صحيحة أما نسبها الذى ذكره فهو خطأ والصواب ما ذكرته، ولو رجع الكاتب إلى كتاب طبقات ابن سعد وغيره من الكتب لما وقع فى هذا الخطأ، وهكذا يجب على الباحث أن يكمل ما بدأه غيره، أو يصحح فكرة أو خطأ وقع فيه من سبقه، فكان هذا البحث تصحيح هذا الخطأ فى نسب هند بنت أثاثة.

وتقف هند بنت أثاثة إلى جانب فاطمة الزهراء تواسيها وتخفف حزنها وتدعوها إلى التصبر قائلة:

أشَـــابَ ذُؤابَتـــى وَأَذَلَّ رُكْنـــى بُكَـاؤُكِ فـاطِمَ المَيْـتَ الفقيـدا[1]

فَاَعْطيـــت العَطـــاءَ فَلَـــمْ تُكـــدِّرْ وَأَخْـــدَمْتَ الوَلائِـــدِ والعَبيـــدَا[2]

(١) الذوائب: جمع ذؤابة: شعر الناصية، والركن: الجانب الأقوى.

(٢) الولائد: الجوارى.

وَكُنْتِ مَلاذَنَا فِى كُلِ لِزِبٍ إذا هبَّتْ شَامَية بَرْوداَ[1]
وإنَّكَ خَيرُ مَن رَكِبِ المطايَا وأَكْرَمُهُمْ إذا نُسِبُوا جُدُودا!
رَسُول الله فَارَقَنَا وكُنَّا نُرَجِى أنْ يَكُون لَنَا خلُودَا
أَفاطمَ! فَاصْبرِى فَلَقَدْ أَصَابَتْ رَزَيتُكِ التهائِمَ والنُّجُودَا[2]
وَاَهْلَ البرِّ والأبْحَأرِ طُرًّا فَلَمْ تَخْطى مُصيبَتُهُ وَحيدَا
وَكَانَ الخيرُ يُصْبحُ فِى ذُراهُ سَعيدُ الجدِّ قَدْ وَلدَا السُعودا[3]

عندما تتأمل مطلع هذه القصيدة نرى أنه يكشف لنا عن ذلك النبع الفياض فى أعماق الشاعرة من اللوعة والأسى والحزن العميق، وهذا الكشف نراه من خلال تعبيرها بلفظ الشيب الذى ظهر عليها من شدة البكاء والحزن من قبل السيدة فاطمة الزهراء رضى الله عنها، على أبيها ﷺ، وكأنها فى هذه السياق تعبر عن احتياجها إلى الألم ذاته، وهذه الحاجة لن ترد عليها ما فقد، وإنما هى وسيلة للتنفيس بل شعيرة الأسى ولحن الألم، لقد زرعت المصيبة الشيب فى رأسها لأنها فقدت معطاءً كريماً. وتمنت لو أن رسول الله ﷺ ظل حياً لا يدنوا منه الموت فالمصيبة فيه مصيبة عمت كل مكان.

ومن خلال هذا المطلع أيضاً نرى فداحة إحساس الشاعرة فى ارتباط مصيرها المستقبلى عندما فقدت الرسول ﷺ حيث أن ركنها القوى المتين أصبح ذليلا ضعيفاً، فهذه الراثية لا تصور لنا من الناحية التعبيرية أحساس الشاعرة بالفاجعة التى تدرك الإنسان عند الوهلة الأولى لوقوع المصيبة

(١) اللزب: الطريق الضيق، المراد الشدة.
(٢) التهائم: المنخفضات من الأرض، والنجودا: المرتفعات، أى جميع البلاد.
(٣) ذرأه: أعلاه، والجد: الحظ، السعود: سعود النجوم وهى الكواكب التى يقال لكل واحد منها سعد. الطبقات الكبرى محمد بن سعد كاتب الواقدى، ج٢، ص ٩٧، وكذا نهاية الأرب فى فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى، ج١٨، ص ٤٠٩. وكذا الشعر والدعوة فى عصر النبوة، يوسف محيى الدين أبو هلالة، ص ٥٠، ٥١، النشرة الأولى، ١٤٠٨هـ، دار العاصمة، الرياض.

عليه، بل الصياغة التعبيرية فى هذه القصيدة تطلعنا على مأساتها المتمكنة والتى تغلغلت فى أعماقها المتدفقة فى جنباتها والتى باشرت فى عمق فعلها فى مشاعرها ووجدانها، وهذا ما دفعنى إلى الاهتمام بإبرازه لقيمته المؤثرة فى نفسية الشاعرة، إذ يظهر لنا بوضوح من خلال هذا المطلع أنها ستبقى ضحية هذه الكارثة المؤلمة طيلة حياتها وتذكر الشاعرة بعضاً من مناقب النبى ﷺ، ثم تحاول أن تقف إلى جانب السيدة فاطمة الزهراء وتعزيها وتحثها على الصبر وتواسيها وتبين لها أن تلك المصيبة لم تكن خاصة بها، أو بآل البيت فقط، ولكنها عامة أصابت جميع المسلمين من جميع البلاد من أهل البر والبحر حتى من غير البشرية فتلك المصيبة لم تخطئ مخلوقاً يحب رسول الله ﷺ.

وهذا يرجع إلى مكانة الفقيد وعظمته وجوده وسخائه، فالخير كان يعم فى كل مكان حل به، ولقد استطاعت الشاعرة أن تتقصى جوانب موضوعها، وتتبع جزيئاته وأبعاده فجاءت أبيات قصيدتها مترابطة فى اتحاد وانسجام، ومن هنا لا نحس فيها بالتكلف أو الضعف، وإنما تسلسلت الأفكار وتتابعت المعانى حتى انتهت إلى الهدف الأصيل، المرتبط بما فى وجدانها ومشاعرها من خواطر وأفكار.

وفى أبيات أخرى تقول هند بنت أثاثة:

ألا يَــا عَــين بَكِّــى! لا تَمَلِّــى	**فَقَــدْ بَكَــرَ النعــىُّ بمــنْ هوِيــتُ**
وَقــدْ بَكَــرِ النَّعــىُّ بخــير شــخْص	**رَسْــولِ الله حقًّــا مَــا حَييــتُ**
وَلَــوْ عشْــنَا وَنَحْــنُ نَــرَاكَ فينَــا	**وَأَمــرُ الله يَــتركُ مَــا بَكيــتُ**
فَقَــدْ بَكَــرَ الــنَّصَّ بــذَاك عَمْــداً	**فَقَــدْ عَظَمــتْ مصيبةً مَــنْ نعيــتُ**

وَقَـدْ عَظُمَـتْ مُصـيبتهِ وَجَلَّـتْ وَكُـلَّ الجَهْـدِ بَعْـدَكَ قَـدْ لَقيـتُ
إلى رَب البَريَّـــةِ ذَاكَ نَشْـــكُو فَـــإنَّ الله يَعْلَـــم مَـــا أُتِيـــتُ
أفَـاطمَ! إنـه قـد هُـد رُكْنـي وَقدْ عَظُمَتْ مُصِيبَةُ من رُزيتُ[1]

فقد استهلت الشاعرة قصيدتها بمخاطبة عينها وحثها على البكاء وعدم الملل منه، لأنها تحتاج إلى هذا البكاء موصولاً غير منقطع، وكأنها تعنى من خلال ذلك السياق أنها محتاجة إلى الألم ذاته.

وقد عبرت الشاعرة وبينت سبب ذلك الحزن الشديد والبكاء الطويل، وهو عندما بكر الناعى بفقد الحبيب ﷺ، وهذا ما عمق فيها جراح نفسها واستمرار لوعتها. أنه رسول الله، خير شخص على هذه الأرض، وهى كما نرى رافضة لهذه الفجيعة، ولكن هذا أمر لابد من نفاذه، فهى هنا تشير إلى مشاعر الألم والحسرة فى نفسها وكأنها تستعطف الأقدار وتقول لها كان الأولى بك الإعراض عن هذا الحدث "ولو عشنا ونحن نراك فينا".

والشاعرة من خلال هذه الأبيات تهدف إلى شئ ذى قيمة هو أنها فى حزنها الشديد تصور الطبيعة الإنسانية المسلمة التى فقدت أغلى شئ لديها، فى أدق خلجاتها ومن ثم فهى ليست شاذة أو غير طبيعية فى موقفها هذا، بل إنها إنسانة طبيعية سوية غير مسرفة فى حزنها مهما ظهرا قاسياً شديداً، ومن هنا يظهر بوضوح قيمة الإلحاح فى تكريرها للفظ "بكر النعى" وقولها

(١) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد كاتب الواقدى، ج٢، ص ٩٧. وكذا وشعر فى رسول العالمين من غير أصحاب الدواوين، جمع وتحقيق محمد الأطرش، ص ٢٦، ٢٧، وكذا ديوان من الشعر العربى المختار تأليف وجمع وترتيب ابراهيم سليمان الطامى، ج١، ص ٤٦، وكذا شعر الدعوى الإسلامية فى عهد النبوة والخلفاء الراشدين جمعه وحققه ووثقه وشرح غريبه وترجم لأعلامه ووضع فهارسه عبد الله بن حامد الحامد، ص ٤١٣، ٤١٤.

أيضاً "عظمت مصيبته" فى الأبيات القليلة، والذى ربما يبدو منكراً فى وجهة نظر بعض الناس.

والشاعرة فى هذه القصيدة تظهر لنا صدق تجربتها ورقة عاطفتها وشدة تأثيرها وانفعالها، وبهذا فقد استطاعت أن تكشف لنا عن عواطفها، وطبعتها بطابع الحزن والألم، وقد حرصت فيها على تصوير هذه الفجيعة بنفس جياشة بالحزن مليئة بالشجن والألم، مولعة بفقد خير الناس ﷺ الذى رحل عنها، وهى مشفوقة به، حريصة عليه، وهى لا تجد طريقاً إلى السلوى عنه، بل كل ما حولها لابد وأن يشاركها هذا الشعور والإحساس.

والمتأمل فى أبيات القصيدة يشعر بحرارة العاطفة، فالشاعرة نجحت إلى حد بعيد فى الكشف عما يعتمل فى ذاتها من العاطفة الملتهبة بالحزن، وفجيعة الفقد. إنه جمال الصورة الفنى وصدق الأداء والشعور، وفى أبيات أخرى تتحدث هند رضى الله عنها عن فضل الرسول الكريم ﷺ وأهميته حيث كان نوراً أضاء الدنيا وذكرت انتهاء الوحى بانتهاء حياة الرسول ﷺ وهذا الانقطاع من الرزايا التى أصابت الأمة الإسلامية، وقد أشار إليه عدد من الشعراء الذين رثوا الرسول الكريم عليه الصلاة والسلام فتقول:

قَدْ كَانَ بَعْدَكَ أَنباءُ وهَنْبَثَةُ	لَوْ كُنْتَ شاهدَها لم تَكثرِ الخُطَبُ
إِنَّا فَقَدْنَاكَ فَقْدَ الأَرْضِ وَابلَها!	فاحتلْ لقَوْمك وَاشهدهمْ ولا تَغبِ
قَدْ كنتَ بدراً ونوراً يُسْتَضَاءُ بِه	عَلَيْكَ تُنْزَلُ من ذى العزةِ الكتبُ
وَكَانَ جبريلُ بالآيات يَحْضُرُنا	فغابَ عَنَّا وكلُّ الغَيْب مُحْتَجِبُ

فَقَــدْ رُزِئْــتُ أَبــاً سَــهْلاً خَلِيقَتُــهُ مَحْضَ الضريبَةِ والأعراقِ والنَّسبُ[1]

وهند رضى الله عنها كغيرها من الشاعرات اللاتى رثين النبى ﷺ، عبرت عن شعور الأمة الإسلامية، فكل ما قيل وصدر عنهن من شعر، شاهد صدق على ذلك، فقد كانت الشاعرة تصدر عما يختلج فى صدر كل مسلم، لا عن ذاتية فردية، وهذا مما يلاحظ فى التراث الفنى لهؤلاء الشاعرات اللاتى نطقن بلسان الأمة الإسلامية ووجدانها العام.

إن الشاعرة قد اتجهت إلى إيثار ما يعبر به عن الخسارة الروحية فى الفقيد، فى بزوغ تلك المدة الزمنية الراهنة فى عصرها وبيئتها، فقد كان ﷺ بدراً ونوراً يستضاء به، فى أخلاقه وأفعاله وشريعته الغراء فهى حزينة وقلبها جريح، بل وحزنها وألمها نافذ إلى الأعماق، لفقد هذه الصفات التى لا توجد فى إنسان غيره، ويظهر ذلك بوضوح فى قولها: "قد كنت بدراً ونوراً ..." وقولها أيضاً: "عليك تنزل من ذى العزة الكتب" "وكان جبريل بالآيات يحضرنا ...".

ففى حياته ﷺ، كانت الآيات القرآنية تنزل عليه من رب العالمين عن طريق جبريل عليه السلام، وهذه الآيات كانت تنير لنا طريق الخير وتفسر لنا الغامض والمبهم من الأمور، وتطلعنا على كثير من الأمور التى لا علم لنا بها، فهى فى حكم الغيب بالنسبة لنا، وبرحيله وفقده ﷺ، انقطع الوحى، فغاب عنا هذا الخير الكثير العظيم.

وقد استطاعت هند رضى الله عنها، أن تنتزع صورة حية فى هذا المعنى من واقع البيئة الصحراوية التى نعيش فيها ويظهر ذلك بوضوح فى

(١) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد كاتب الواقدى، ج٢، ص ٩٧. وكذا ديوان من الشعر العربى المختار الجزء الأول، إبراهيم سليمان الطامى، ص ٤٧. وكذا شعر فى رسول العالمين من غير أصحاب الدواوين، جمع وتحقيق محمد الأطرش.

قولها "إنا فقدناك فقد الأرض وابلها ..." فالأرض إذا فقدت المطر والغيث تصبح جرداء لا نبات فيها ولا حياة، وكذلك فقده ﷺ، بالنسبة للمسلمين، فكانت موفقة فى هذا التصوير والتمثيل فقد استطاعت أن ترسخ فكرتها فى الأذهان، وتبرهن أيضاً على شدة حزنها ولوعتها وعاطفتها الصادقة التى صاغت بها هذه الأبيات وعبرت عن تجربتها الشعرية فى صدق فنى وواقعى، لتجعلنا نشاركها جميعاً فى هذا الشعور وتلك العاطفة الحزينة، والنفس الجريحة التى سلبت أعز ما تمتلك فى هذه الحياة(١).

وبعد هذه الصور التى رأيناها تقطع نياط القلوب حزناً على فراق الحبيب ﷺ، لا نغالى إذا ما قلنا: أن هذا الرثاء نبع من إحساس ارتباط الفرد بالجماعة ارتباطاً تاماً، ومن شعور بالفراغ الكبير الذى تركه خلفه الفقيد ﷺ.

وهذا الشعور يوحى بالرغبة فى أن يملأ، ولكن كيف؟ ومن يكون فإذا رأينا ضرب الوجه بالكف من قبل بعض نساء المؤمنين فهذا من أثر تلك الصدمة، وعلى شدة الخوف من أثر فقده على كيان الأمة الإسلامية عامة، وعلى أهل بيته خاصة، أى أثره على الجماعة من حيث هى بناء مترابط، وليس لطماً عليه ﷺ وإلا فقد نهى عنه قبل أن يفارق الدنيا، وهذا ما جعل رثاءه ﷺ، له ميزة خاصة تختلف عن رثاء غيره من البشر مهما كانت منزلته، فجاء هذا الرثاء – كما رأينا – بعاطفة عامة شاملة، لا بعاطفة خاصة فى دائرة ضيقة محدودة، كالأسرة والأصدقاء فحسب، ومن ثم فقد صار عرفاً وتقليداً جماعياً واجتماعياً فى آن واحد لدى هؤلاء الشاعرات، لأن فضائل النبى ومناقبه لم تخص أحداً بعينيه، ولكنها كانت جماعية شاملة لخدمة أفراد

(١) الشعر الإسلامى فى صدر الإسلام عبد الله الحامد، ص ٢٣٧، الطبعة الأولى، ١٤٠٠هـ-١٩٨٠م، مطابع الإشعاع التجارية، الرياض.

المجتمع وتربيتهم على الفضيلة والرحمة، وإغاثة الملهوف والمحتاج، وكان هذا سبباً قوياً فى دوران الشاعرات فى هذا الفلك وذكر ما تيسر لكل شاعرة من فضائله الجمة وتصب أفكارها من خلال الرثاء الجماعى الذى نبع من عاطفة صادقة لدى الشاعرة وغيرها من أفراد المجتمع الذين بادلوها هذا الشعور والإحساس وتلك العاطفة، فهى مشتركة بين الشاعرة والمتلقين.

وهكذا راينا كيف وقفت شاعرات بيت النبوة مذهولات أمام حقيقة الموت التى ألمت بعميد أسرتهم فبكوا عليه بكاءً مراً عددن فيه صفاته العظيمة، وتحسرن على زوال الفضائل التى عشنها أثناء حياته، وإلى جانب حالة الذهول التى رأيناها واضحة فى جميع أشعارهن. نجد ذكراً للصفات الكثيرة التى تحلى بها النبى ﷺ. وقد أخذت كل شاعرة تسرد بعض فضائل الرسول ﷺ، فهو الفاضل، والسيد المصطفى ... وتتذكر صورة الحياة من بعده، وكيف تعيش بعد فقده ﷺ، فبموته قد ماتت الحياة، واقتربت الساعة، وبهذا تقدم كل شاعرة حجة قوية تكشف لنا بها عن طبيعة تعلق المسلم وحبه القوى الشديد لرسوله ﷺ، إذ توضح أنه يشغل من عواطفهم مكاناً لا ينازعه فيه أحد من الناس، وحتى الإنسان نفسه يحبه أكثر من نفسه التى بين جنبيه، وبفقده سيفقدون الحياة، وإذا استمرت فهى منغصة شائبة، وسوف يلازمهم الألم فى كل وقت وحين وقيام الساعة وانتهاء الحياة خير من العيش فيها بغير رسول الله ﷺ، كما يغلب على رثائهن الشعور الرقيق والحزن العميق، والمباشرة فى تصوير الحدث ووقعه على نفوسهن، ولكن ذلك لم يؤثر على التشكيل الشعرى، بحيث نرى شعراً جيداً سهلاً سلساً يكشف عن طبع وخبرة.

وبعد: فقد كان بكاء النبى ﷺ، من قبل شاعرات بيت النبوة رضوان الله عليهن، يعتمد على الانفعال بالتجربة الإنسانية، وتصوير ألم الإحساس بالفجيعة التى منى بها كل مسلم على ظهر هذه الأرض، وليس أقرباؤه فقط، لأنه كما وصفه ربه تعالى "بالمؤمنين رؤوف رحيم".

ويخطئ من يظن أن تلك القصائد أو المقطوعات مجرد زفرات عابرة لا تتصل بشاعرية أصيلة وقصد إلى التجويد والتنقيح، فإننا نرى أن وراء تلك الدفقات الشعورية شعراً جيداً.

رثاء النبى ﷺ عند الصحابيات:

ذرفت الصحابيات الدموع الغزيرة على رحيل رسول الله ﷺ لأنهن فقدن رسولاً رحيماً فاضلاً. فهذه بركة بنت ثعلبة[١] صحابية مباركة، عاشت مراحل النبوة كلّها، وعاصرت الأحداث الإسلامية وتكنى بأم أيمن.

كانت حاضنة للنبى ﷺ، وأضحت زوجاً لحب النبى ﷺ زيد بن حارثة، وأماً للشهيد "أيمن بن عبيد الخزرجى".

عرفت أم أيمن النبى ﷺ طفلاً صغيراً، ونبياً مرسلاً.

وأم أيمن هذه هى التى كانت مع آمنة بنت وهب أم النبى ﷺ، حين ذهبت إلى المدينة لزيارة بنى النجار أخوال جده عبد المطلب، ولما عادت إلى مكة مرضت آمنة فى الطريق، وتوفيت فى الإيواء[٢]، فعادت أم أيمن بالنبى ﷺ وأصبحت حاضنته، وأوقفت نفسها لرعايته والعناية به، وغمرته بعطفها.

وشب النبى ﷺ وهو يقدر أم أيمن ويكرمها لأنها كانت – رضى الله عنها – تقوم على أموره وشؤونه، وترعاه رعاية حسنة، فلما تزوج الرسول ﷺ، خديجة – رضى الله عنها – أعتق أم أيمن فتزوجها عبيد بن زيد الخزجى، فولدت له أيمن، وأيمن هذا صاحب هجرة وجهاد قتل يوم حنين – رضى الله عنه – ثم تزوجت زيد بن حارثة فولدت له أسامة فكان يكنى به.

(١) بركة بنت ثعلبة بن عمرو بن حصن بن مالك بن سلمة بن عمرو بن النعمان الحبشية، نساء حول الرسول والرد على مفتريات المستشرقين، محمود مهدى الاستانبولى – مصطفى أبو النصر الشلبى، ص ٢٣٥، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، مكتبة السوادى للتوزيع، جدة.

(٢) الأيواء: قرية بين مكة والمدينة.

ورغم كبر سن أم أيمن فقد أبت إلاَّ تشارك فى الجهاد مع رسول الله ﷺ ففى غزوة أحد خرجت أم أيمن مع النساء، وكانت مهمتها مداواة الجرحى والاعتناء بهم، وسقاية العطشى من المجاهدين وفى غزوة خيبر خرج مع الرسول ﷺ عشرون امرأة كان من بينهن أم أيمن.

وفى سرية مؤتة قتل زيد بن حارثة فتلقت أم أيمن نبأ استشهاد زوجها وهى محتسبة صابرة، ثم تأتى غزوة حنين ويقتل فيها ابنها أيمن، فتصبر وتحتسب ابنها عند الله تعالى ابتغاء مرضاته ومرضاة رسول الله ﷺ.

ولقد تبوأت أم أيمن عند النبى ﷺ، مكانة عظيمة، ومرت الأيام سريعاً، وتوفى الرسول ﷺ، وتسرب النبأ الفادح، وأظلمت على المدينة أرجاؤها وآفاقها، وانفطرت قلوب الناس حزناً، ووقفت أم أيمن حزينة تبكى على فراق رسول الله ﷺ وتطلب من عينيها أن تجودا بالبكاء على النبى ﷺ فقامت ترثى رسول الله ﷺ بقصيدة تقول فيها:

عَيْنِ جُودى! فإنَّ بَذْلَكِ للدَّمْـ ـعِ شِفَاءُ فَأَكْثِرى م البُكَاءِ
حينَ قَالوا: الرَّسُولُ أَمْسى فَقِيدًا مَيِّتًا كَان ذاكَ كُلَّ البَلاَءِ!
وَابْكِيَا خَيَر مَنْ رُزِئْنَاهُ فى الدُّنْـ ـيَا وَمَن خَصَّهُ بِوَحْى السَّمَاءِ
بدموع غزيرة منك حتى يقضى الله فيك خير القضاءِ
فَلَقَدْ كَانَ ما عَلِمت وَصُولاً وَلَقَدْ جَاءَ رَحْمَةً بالضِّيَاءِ!
ولَقَدْ كَانَ بَعْدَ ذلكَ نوراً وَسِرَاجا يُضِئُ فى الظَّلماءِ
طَيِّبَ العُودِ والضَّرِيبةِ والمَعْـ ـدِنِ وَالخِيم خاتم الأنبياء[1]

(١) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد كاتب الواقدى، ج٢، ص ٩٨ وكذا صور من سير الصحابيات، عبد الحميد بن عبد الرحمن السحيبانى، ص ٩٢، ٩٣، وكذا ديوان من الشعر العربى المختار، إبراهيم السليمان الطامى الجزء الأول، ص ٤٦.

إن بركة الحبشية رضى الله عنها لم تجد أكبر من هذه المصيبة التى تستحق مواصلة ذرف الدموع فالنبى ﷺ أعظم من فقد لأنه كان يصل الرحم، طيب العود، ونشر النور والضياء فقضى على الظلمة، وكان ﷺ كذلك خاتم الأنبياء.

وهذه عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل القرشية صحابية كريمة هى أخت سعيد بن زيد أحد العشرة المبشرين بالجنة. أمها أم كريز بنت الحضرمى، وخالها العلاء بن الحضرمى الصحابى المشهور، وخالتها الصعبة بنت الحضرمى أم طلحة بن عبيد الله أحد العشرة المبشرين بالجنة أيضاً.

اشتهرت عاتكة بنت زيد بين نساء قريش بالبلاغة والفصاحة، وقول الشعر، ورجاحة العقل.

وقد ورثت هذا عن أبيها زيد بن عمرو أحد الذين ازدروا الأصنام فى قريش فى الجاهلية.

وكانت عاتكة - رضى الله عنها - ذات خلق بارع وصاحبة عقل راجح ورأى سديد، تزوجها عبد الله بن أبى بكر الصديق - رضى الله عنهما - وكان شديد التعلق بها حتى انشغل عن كثير من أموره، فأمر والده بطلاقها وعزم عليه بذلك فلم يسعه أن يخالف أمره، فطلقها واحدة.

غير أن عبد الله تألم أشد الألم لفراق زوجه حتى أثر فيه ذلك، وشعر والده بذلك، وعرف تعلقه بعاتكة فرق له لشدة حبه لها فأذن له أ، يراجعها، فارتجعها.

وبعد وفاة عبد الله تزوجت عاتكة – رضى الله عنها – من عمر بن الخطاب، سنة اثنتى عشرة من الهجرة، فاحتلت عنده مكانه رفيعة، واقتبست كثيراً من علمه وزهده.

ثم زوجت عاتكة بعد عمر من الزبير بن العوام – رضى الله عنه – ولقد كانت – رضى الله عنها – من أحمل النساء للنازلة، وأصبرهم على البلاء، وقد توفيت فى أول خلافة معاوية بن أبى سفيان – رضى الله عنه – سنة إحدى وأربعين ، ولنستمع الآن إلى قصيدتها الحزينة التى رثت بها رسول الله ﷺ يوم توفى ونجدها تحكى قصة الحزن الذى ملأ قلوب المسلمين فتقول:

أَمْسَتْ مَرَاكِبُهُ أَوْحَشَتْ وَقَدْ كَانَ يَرْكَبُهَا زَيْنُهَا
وأَمْسَتْ تَبكى عَلَى سَيد تُرَدِّدُ عَبْرَتَهَا عَيْنُهَا
وَأَمْسَتْ نِسَاؤكَ مَا تَسْتَفِيقُ مِنَ الحُزن يَعْتَادُهَا ذيْنُهَا
وَأَمْسَتْ شوَاحبِ مِثْلَ النِّصا لِ قَدْ عُطِّلَتْ وَكِبَا لَوْنُهَا!
يُعالِجْنَ حُزْناً بَعِيدَ الذَّهابِ وَفِى الصَّدْرِ مُكتنِع حَيْنُهَا[1]
يُضَرَّبْنَ بالكُفِّ حُرًّا الوُجُوهِ عَلَى مِثْلِهِ جَادَهَا شونُها[2]
هو الفَاضِلُ السَّيّدُ المُصْطفى عَلَى الحقِّ مَجْتَمِع دِينها
فكيْفَ حَيَاتَى بَعْدَ الرَّسُولِ وَقَدْ حَانَ مِنْ ميته حينها[3]

لقد كانت المصيبة عظيمة تلك التى أعلن فيها عن وفاة رسول الله ﷺ.

(١) مكتنع: منقبض.
(٢) شونها: التوشن، قلة الماء، وقال الكلابى: "كان بيننا رجل يشون الرؤوس يريد يفرج شؤون الرأس ويخرج على حد زعمه منها دابة تكون على الدماغ".
(٣) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد كاتب الواقدى، ج٢، ص ٩٧، ٩٨، وكذا شعر فى رسول العالمين من غير أصحاب الدواوين جمع وتحقيق محمد الأطرش، ص ١٥٣، ١٥٤. وكذا صور من سير الصحابيات عبدالحميد بن عبد الرحمن السحيبانى، ص ٢٣٨.

ظواهر موضوعية وفنية فى مراثى النساء لرسول الله ﷺ

من عدل الله ورحمته وحكمته أن كتب على كل حى أن يموت لا فرق بين قوى وضعيف ولا بين كبير وصغير ولا نبى وغير نبى.

وإلا فلو كان لأحد أن يكتب له الخلود لخلد الأنبياء، ولو كان لنبى أن لا يموت لبقى رسول الله ﷺ، ولكن خاتم النبيين اختار الرفيق الأعلى وجوار ربه على البقاء فى الدنيا بعد أن بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح أمته(١).

لقد كانت المصيبة التى ألمت بالمسلمين عندما رحل عنهم رسول الله ﷺ أعظم من أن تحد وأكبر من أن توصف لأن الرسول ﷺ قد شغل طوال الفترة التى عاشها نبياً المساحة العظيمة فى حياتهم.

وعلى الرغم من إيمان هؤلاء المسلمين بأن النبى ﷺ بشر مثلهم يمكن أن يتعرض للمرض والموت، إلا أنهم ذهلوا عندما وجدوه ميتاً وهم لا يستطيعون فعل شئ.

وأشارت أبيات الرثاء التى قالتها صحابيات رسول الله ﷺ إبان الوفاة إلى حالات الجزع والهلع والدهشة التى أصابت المسلمين جميعاً فتغلغل الأرق إلى أجفانهن، وجفت مآقيهن لكثرة الدموع التى ذرفنها، فكان رثاؤهن له دعوة عامة للبكاء، وكانت عيونهن عاجزة عن تلبية متطلبات الشجا واللوعة التى ألمت بقلوبهن، لذلك رأينهن جميعهن يتوجهن إلى هذه العيون فيحثونها على مواصلة ذرف الدموع، هذا ما فعلته أروى بنت عبد المطلب عندما طالبت عينيها بمزيد من الدمع لتخفف ألمها بالمصاب:

(١) النهج المحمدى عبد العزيز المسند، ص ٣٤٦، النادى الأدبى، الرياض، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.

أَلاَ عَيْنُ! وَيْحَكِ أَسْعِدينى بدمعِك ما بَقِيت وطاوعِينى
ألا يا عينُ وَيْحَكِ! واسْتهلّى على نُورِ البلاد وأسْعِدينى!(١)

ودعوة إلى البكاء والحزن الشديد من صفية بنت عبد المطلب التى تؤكد على عينيها أن تجودا بالدمع:

عَيْنِ جُودِى بدَمْعَة وَسَهْودِ وَانْدُبِى خَيْرَهَا لكِ مَفْقود(٢)

وما أكثر ما خاطبت السيدة صفية - رضى الله عنها - عينيها فى مطلع مرثياتها لرسول الله ﷺ:

أَعيْنَى فاسْحَنْفرَا وَاسْكبَا بِوَجْد وَحُزن شَدِيدِ الأَلَمْ(٣)

وتقول:

عَيْنِ جُودى بدَمْعَة تُسكابِ للنبىِّ المُطَهَّر الأوَّابِ(٤)

وها هى ذى تشعر بأن عينيها تتباطآن فى البكاء فلتومهما قائلة:

فَعَيْنِى مَالَك لا تَدْمَعِينَ؟ وحُقَ لِدَمْعِك يُسْتَسْكَبُ(٥)

وتطلب عاتكة بنت عبد المطلب - رضى الله عنها - من عينيها أن تستمرا فى ذرف الدموع ما دامتا على قيد الحياة، وأن تسكب العبرات على خير البرية أحمد ﷺ:

يا عَينِ جُودى ما بقيتِ بعَبَرةٍ سَحًّا على خَيرِ البَرِيَةِ أحْمَدِ
يا عَينِ فاحتفلى وَسُحِّى واسْجُمى وَابكى على نُورِ البلادِ مُحَمَّدِ!(٦)

(١) نهاية الأرب فى فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب النويرى، ج١٨ ص ٤٠٤، وكذا الطبقات الكبرى، محمد على سعد كاتب الواقدى، ج٢، ص ٩٣.
(٢) الطبقات الكبرى محمد بن سعد كاتب الواقعى، ج٢، ص ٩٦.
(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص ٩٥.
(٤) المصدر نفسه، ج٢، ص ٩٦.
(٥) المصدر نفسه، ج٢، ص ٩٥.
(٦) المصدر نفسه، ج٢، ص ٩٤.

وأشبه دموع هند بنت الحارث بن عبد المطلب بماء الغيث المنسكب:

يا عينِ جُودى بدمعٍ منكِ وابتدرِى كَمَا تَنَزَّلَ مَاءُ الغَيثِ فَانْتَعَبَا[1]

وهذه هند بنت أثاثة لا تمل البكاء:

ألا يَا عَين بَكِّى! لا تَمَلِّى فَقَدْ بَكَرَ النعىُّ بمنْ هوِيتُ[2]

ولا تجد بركة الحبشية إلا عينيها تلوذ بدموعهما للشفاء من المصاب:

عَيْنِ جُودى! فإنَّ بَذْلَكِ للدَّمْـ ـعِ شِفَاءُ فَأَكْثِرى م البُكَاءِ[3]

وعلى الرغم من أن الحدث الجلل قد استغرق الراثيات، وحرك مشاعرهن وأثار أشجانهن وأحزانهن، فإن نظرهن كان موجهاً إلى عالم الشعر يستمدون منه صورهن وتعابيرهن وتراكيبهن وجملهن الشعرية.

ولا نبتعد عن الحقيقة حين نقرر أنهن اعتمدن على التراث الشعرى لشعراء الرثاء.

وقد تكررت نفس المطالع البكائية عن شعراء الرثاء، منذ العصر الجاهلى وفى شعر الخنساء نجد مطالع تمثل - فى رأينا - منطلقاً لموضوعات الرثاء عند الراثيات للرسول ﷺ ومن ذلك قول الخنساء:

أعينى جودا ولا تجمدا ألا تبكيان لصخر الندى[4]

وقولها:

يا عين جودى بدمع منك مسكوب كلؤلؤ جال فى الأسماط مثقوب[1]

---

(١) المصدر نفسه، ج٢، ص ٩٦.
(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص ٩٧.
(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص ٩٨.
(٤) ديوان الخنساء، ص ٣٣.

لقد تمتعت شخصية رسول الله ﷺ بالحضور والتأثير مما جعلها شخصية جديرة بالحزن العميق لفقدها والبكاء على أيامها الساطعة، فتحولت المدينة المنورة إلى بركان ملتهب يقذف نيران الأسى والجزع من كل قلب وكل مكان، وذهبت بعض الراثيات إلى أبعد من ذلك عندما صورت عناصر الطبيعة الحية والجامدة وهى تشهد وفاة رسول الله ﷺ فتحزن وتتأثر وتتألم وقد أشارت السيدة فاطمة الزهراء – رضى الله عنها – إلى ذلك:

اغبرَّ آفاقُ السماءِ وكُوِّرتْ شِمْسُ النَّهار وأظْلَمَ العَصْران
والأرضُ مِنْ بعدِ النبىّ كئيبةٌ أسَفاً عليه كثيرةُ الرُّجْفان(٢)

وقد ظهرت فى مراثى المسلمين للنبى ﷺ، مشاعر القلق والاضطراب لانتهاء الصلة بينهم وبين ربهم.

فعندما كان النبى ﷺ يعيش معهم كانوا يأنسون بتلك الصلة التى كان يربطها جبريل بين النبى وربه كان هذا التواصل يبعث فى نفوسهم الطمأنينة والسكينة، ويزرع فيهم الثقة وثبات الإيمان لكن رسول الله ﷺ قد مات وانقطع الوحى ولم يعد جبريل يتنزل بالآيات فكان ذلك أمراً أحسوه وشعروا بحجم تأثيره.

وتشير عاتكة بنت عبد المطلب إلى ذلك وهى تبكى متسائلة:

أَمْ مَنْ لَوحْى اللهِ يُتْرَكُ بَيْنَنَا فى كلِّ مُمْسى لَيْلَة أَوْفى غَدِ؟(٣)

كما تذكر هند بنت أثاثة هذا الأمر فى مرثيتها:

وَكَانَ جبريلُ بالآيات يَحْضُرُنا فغابَ عَنَّا وكلُّ الغَيْب مُحْتَجِبُ

(١) المصدر نفسه، ص ٢٣.
(٢) نهاية الأرب فى فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب النويرى، ج١٨، ص ٤٠٣.
(٣) الطبقات الكبرى محمد بن سعد كاتب الواقدى، ج٢، ص ٩٧.

لقد منح رسول الله ﷺ الدنيا النور والضياء، فبدد عنها ظلمة الضلال والكفر. واستمر فى حياته ينشر نور الهداية والرشاد فى كل مكان، فكانت شخصيته مبعثاً للنور ومصدراً لضياء الهدى، وعندما مات ﷺ أحس المسلمون بزوال ذلك الضياء فكثر تفجعهم وغلب على قلوبهم الألم والحزن، فتبكيه عمته عاتكة بنت عبد المطلب تبكى صفاته العظيمة ومن بينها النور الذى كان يلازمه:

عَلى المُصْطفَى بالحقِّ والنُّور والهُدى وبالرُّشْد بَعدَ المُنْدَبَات العظائمِ(١)

وتبكيه هند بنت أثاثة وتخاطبه قائلة:

قَدْ كنتَ بدراً ونوراً يُسْتَضَاءُ بِه عَلَيْكَ تُنْزَلُ من ذى العزةِ الكتبُ(٢)

وتؤد بركة بنت ثعلبة الحبشية هذا المعنى وهى ترثى موت النبى ﷺ:

فَلَقَدْ كَانَ ما عَلِمت وَصُولاً وَلَقَدْ جَاءَ رَحْمَةً بالضِّيَاءِ!
ولَقَدْ كَانَ بَعْدَ ذلكَ نوراً وَسِرَاجا يُضِئُ فى الظَّلماءِ(٣)

وقد ظهر رسول الله ﷺ فى شعر الراثيات اللاتى عددن صفاته الجليلة التى تكاملت فى شخصيته كأحسن ما يكون التكامل مثلاً أعلى فى كل شئ، فكان رؤوفاً رحيماً وقد أشارت السيدة صفية بنت عبد المطلب إلى بعض هذه الصفات فقالت:

فَلَقَدْ كَانَ بالعَبادِ رَءوفاً وَلَهُمْ رحْمَةً وَخَيرَ رَشيدِ(٤)

وكان براً وصولاً للرحم كما أشارت إلى ذلك السيدة أروى بنت عبد المطلب:

(١) المصدر نفسه، ج٢، ص ٩٤.
(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص ٩٧.
(٣) المصدر نفسه، ص ٩٨.
(٤) السيرة النبوية الخالدة سيرة رسول الله ﷺ، محمد عبد المنعم خفاجى، ص ٤٦٧.

أَلا يـا رَسُـولَ اللهِ كُنْـتَ رَجَاءَنـا وكُنْـت بِنَـا بَـرّاً ولمْ تَـكُ جافِيَـا![1]

كما أشادت بصبره وصدقه مما أهله ليحمل عبء الرسالة وينهض بها فتقول:

صَـبَرْتَ وَبَلَّغْـت الرسَـالَةَ صَـادِقا وقمْتَ صَليبَ الدين أَبْلَجَ صَافيا[2]

وذكرت عمته السيدة صفية أيضاً مسألة الصدق فى النبى ﷺ فقالت:

أَبْلَـجُ صَـادقُ السَّـجيَّةِ عـفٌ صَـادِقِ الوَعْـد منتهـى الـروادِ![3]

وعندما يرحل رسول الله ﷺ عن دنيا المسلمين ترحل معه صفات الحلم والعلم والرحمة وتتكامل الصفات المحمدية عند عمته عاتكة بنت عبد المطلب فهى تبدو جزوعاً هلوعاً حزينة تبكى مصيبتها التى حددت معالمها بقولها:

من فَقْدِ أَزْهَرَ ضَافِى الخُلْق ذى فَخر صَافٍ من العَيب والعاهات والزورا![4]

وإلى جانب هذه الصفات التى ذكرنا شواهد لها، عدد الرثاة مزايا أخرى كثيرة، أن رحيل رسول الله ﷺ قد ملأ الدنيا وحشة وظلمة وزرع فى النفوس الكآبة والسأم. لذلك رأينا هذا الإحساس يتكرر عند المسلمين الذين رثوه، قالت عمته صفية بنت عبد المطلب تصف هذه الوحشة:

فَأَوْحَشَـتِ الأَرْض مِـن فقْـدهِ وَأىَّ البَريـة لا يُنْكَـب؟[5]

ثم نراها تذكر وحشة البيوت قائلة:

إذْ رأيْنَـا بُيُوتَـهُ مُوحِشَـات لَـيْسَ فِـيهِنَّ بَعْـدَ عَـيْش حَبيبـى[1]

(١) الطبقات الكبرى محمد بن سعد كاتب الواقدى، ج٢، ص ٩٣.
(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص ٩٦.
(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص ٩٦.
(٤) الطبقات الكبرى، محمد ابن سعد الواقدى، ج٢، ص٩٤.
(٥) المصدر نفسه، ج٢، ص ٩٥، وكذا نهاية الأرب فى فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى، ج١٨، ص ٤٠٤.

ووصف الرثاة حال نساء النبى ﷺ اللواتى اضطرمت عواطفهن و واحترقت قلوبهن وما أصابهن من حزن وبؤس بعد انتقاله ﷺ إلى جوار ربه، وقد تحسست عاتكة بنت زيد بن عمرو بن نفيل القرشية معاناة تلك النساء فقالت:

وَأَمْسَتْ نِسَاؤُكَ مَا تَسْتَفِيقُ مِنَ الحُزن يَعْتَادُهَا ذيْنُهَا

وَأَمْسَتْ شَوَاحبِ مِثْلَ النِّصا لِ قَدْ عُطِّلَتْ وَكِبَا لَوْنُهَا(٢)

ولأن وفاة النبى ﷺ كانت مفاجأة كبيرة ومصيبة عظيمة هزت كيان المسلمين فقد تراءت صورة الحياة بدونه مقيتة لا جدوى منها ونجد بعض الرثاة قد نفذ خيالهم كالسهم إلى الآخرة فيتصورون يوم القيامة وجنات الخلد التى وعد الله نبيه ﷺ فتقول عمته أروى بنت عبد المطلب:

عَلَيْكَ من اللهِ السَّلامُ تحِيَّة وأدُخلت جَنَّات من العدنِ رَاضياً(٣)

وتقول عمته صفية بنت عبد المطلب:

رَضَى اللهُ عَنْهُ حَيًّا ومَيْتًا وجَزَاهُ الجِنَانَ يومَ الخُلُودِ(٤)

المعانى التى تضمنتها قصائد الشواعر فى رثاء رسول الله ﷺ يمكن تصنيفها إلى ثلاثة أقسام:

الأول: يمثل شعور الراثية.

الثانى: يعبر عن شمائل المرثى

الثالث: يدل على المعانى الإسلامية العامة.

(١) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد كاتب الواقدى، ج٢، ص ٩٤.
(٢) المصدر نفسه، ج٢، ص ٩٨.
(٣) المصدر نفسه، ج٢، ص ٩٣.
(٤) المصدر نفسه، ج٢، ص ٩٦.

وقد اختلفت العناصر الأسلوبية فى هذه الأقسام اختلافاً واضحاً من حيث اللغة والصور ووسائل الإيقاع.

فاللغة فى القسم الأول يضم معجمها مواد المصيبة والكآبة والأسف والبكاء والحزن والشجى والهم والحسرة، والدمع والجوى والنكبة والألم والوجد والفجيعة، والأرق والكربة والفقد وغيرها مما يمثلها من المعانى وهى موظفة فى سياق عاطفى يبدو فيه الفجيعة والتوتر والمفاجأة.

أما القسم الثانى فالمعجم اللغوى فيه يماثل المعجم المدحى الذى يشتمل على تكرار اسم محمد وأحمد استعذاباً له، وتأكيداً لسلطانه على النفوس، كما يشتمل على الشمائل الرفيعة التى تميز بها فهو صفوة الله، المرتضى للهدى والتقى والرشد والنور، الطاهر، المجتبى، كريم الخيم، طويل الباع، ملاذ الضعيف، الأواب، الرحيم الرؤوف، الصادق الوعد المبرأ من العيوب والعاهات والزور وغيرها مما يماثلها من الشمائل.

ومن الملاحظ من خلال ما عرضنا من مراثى كثرة استخدام صيغ المبالغة فى هذا القسم المدحى تأكيداً لمعنى التفجع.

والقسم الثالث من معانى الرثاء الدال على المعانى الإسلامية العامة يتسم بالتأمل العقلى وإقرار الواقع فالموت حق على كل العباد، ولكن الإسلام باق بكل أركانه، فقد تمت الرسالة على أكمل وجه وأصبح موت النبى ﷺ وحياته سواء بعد تمام الرسالة، ومعجم لغة هذا القسم - كما هو واضح من الأمثلة التى قدمناها - يتسم بالواقعية العقلية فنجد فيها: الموت، الأجل، الحق، الوحى، التنزيل، وغير ذلك من الألفاظ ذات الدلالة العامة، فإذا وصف النبى ﷺ، اختيرت له دلالات إسلامية كالصادق والأواب وغير ذلك من الدلالات الإسلامية.

ومما لا شك فيه أن الصور الفنية تختلف فى الأقسام الثلاثة، فنجدها فى القسم الأول معبرة عن عواطف جياشة تمثل الفجيعة والألم وقد سبق أن أشرت إلى

إشراكهن للكون بأرضه وسمائه وطبيعته فى البكاء ويظهر ذلك بوضوح فى قول السيدة فاطمة الزهراء:

اغـبرَّ آفـاقُ السـماءِ وكُـوِّرتْ شِـمْسُ النَّهـار وأظْلَـمَ العَصْـران
والأرضُ مِـنْ بعـدِ النبـيّ كئيبـةُ أسَـفاً عليـه كـثيرةُ الرُّجْفـان
فلتبكيـه شـرق الـبلاد وغربهـا ولتبكـه مضـر وكـل يمـان
وليبكـه الطـود المعظـم جـوه والبيـت ذو الأسـتار والأركـان[1]

وتتألف صور كثيرة تشبيهية ومجازية وكنائية فى هذا القسم لتعبر عن أثر فقد الرسول ﷺ فى إصابة الراثية بالشيب دلالة على الفجيعة وتصور ذلك أروى بنت عبد المطلب فتقول:

لأمْـرٍ هَـدَّنى وأذَلَّ رُكْنـى وَشَـيبَ بَعْـدَ جـدَّتها قَرْونـى[2]

وتأسى هند بنت أثاثة على بكاء فاطمة لأبيها فتكرر الصورة نفسها قائلة:

أشَـابَ ذُؤابَتـى وَأَذَلَّ رُكْنـى بُكَـاؤُكِ فـاطِمَ الميْـتَ الفقيـدا[3]

وتقول هند بنت أثاثة إن فقد المسلمين رسولهم مثل فقد الأرض ما ينزل من مطر تقول:

إنَّـا فَقَـدْنَاك فَقْـدَ الأَرْضِ وَابلـها! فاحتلْ لقَوْمك وَاشهدهمْ ولا تَغبِ[4]

كما تتميز الصورة الفنية فى القسم الثانى من معانى الرثاء بتجلية معنى النور والهداية تقول عمته صفية بنت عبد المطلب:

عَلـى المُرتضـى للْهُـدى وَالتُّقَـى وَللرُّشْـد وَالنُّـور بَعْـدَ الظُّلَـمْ[5]

(١) نهاية الأرب فى فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب النويرى، ج١٨، ص ٤٠٣.
(٢) المصدر نفسه، ج١٨، ص ٤٠٤.
(٣) الطبقات الكبرى محمد بن سعد كاتب الواقدى، ج٢، ص ٩٧.
(٤) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد كاتب الواقدى، ج٢، ص ٩٧.
(٥) المصدر نفسه، ج٢، ص٩٥.

أما القسم الثالث فهو أقل الأقسام صوراً فنية إذ تغلب عليه الحقيقة دون المجاز.

وإذا تأملنا فى التوظيف البديعى فى شعر الرثاء وجدنا فى القسم الأول المعبر عن عواطف الشواعر ألوانا منه تشارك فى جمال الإيقاع فى داخل الأبيات ففى شعر السيدة فاطمة الزهراء ابنة النبى ﷺ، نجد الجناس الاشتقاقى والمردد متالفاً مع الصورة الفنية فهى تقول:

صُبَّتْ علىَ مصائبُ لو أنها صُبَّت على الأيام عدْنَ لَياليا(١)

فتكرار الفعل المبنى للمجهول (صبت) بما يحمل من دلالة القهر والمفاجأة مجانسة بينه وبين المصائب التى تحيل بياض النهار إلى ليل قاتم.

ونجد فى قصيدة عمته صفية بنت عبد المطلب توظيفاً فنياً له قدرة الإيقاع والدلالة بتكرار مادة (بكى) والتى أتت بها فعل أمر مرتين (بكى) وأتت به مضارعاً أربع مرات دلالة على الاستمرار والتجدد دون توقف، وأتت به مبنياً للمجهول مرة لتعميم حدث البكاء دون إسناده لواحد بعينه، وأتت به مصدراً مرة لتجعله أمراً مشتركاً تقول مخاطبة أحب الخلق إلى رسول الله ﷺ السيدة فاطمة الزهراء:

أَفَاطمِ بَكِى وَلاَ تسْأمى بُصبْحك مَا طَلَع الكَوْكَبُ!
هُوَ المرْؤُ يُبْكى وَحُق البُكاءُ! هُو الماجدُ السَّيِّدُ الطَّيِّبُ!
فَبَكَى الرَّسُول! وحُقُّتْ لَهُ شهُودُ المَدِينَة والغُيَّبُ!
لَتبْكيكَ شَمْطاءُ مضْرورَة إذا حُجب النَّاسُ لا تُحْجَبُ
ويَبْكيكَ رَكْب أرْمَلُوا فَلَمْ يُلْفَ مَا طَلَبَ الطُّلَّب
وَتْبكى الأَبَاطِحُ مِنْ فَقْدِهِ وَتَبْكِيهِ مَكَّةُ والأَخْشَبُ

(١) نهاية الأرب فى فنون الأدب، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويرى،، ج١٨، ص ٤٠٣.

وَتَبْكِـــى وَعِـــيرَةُ مِـــنْ فَقْـــدِهِ بُحـــزْنِ وَيُسْـــعدُهَا الميثَـــبُ[1]

وهكذا تآلفت العناصر الأسلوبية فى مرثيات الشواعر للرسول ﷺ مع المعانى التى استلهمتها الشواعر من هول هذه الفاجعة ليبدعن لنا قصائد يمتزج فيها العقل بالوجدان معبرات عن حس إسلامى عميق الينابيع ممتد الجذور بعد أن آمن أصحابه بالدعوى وصحبوها منذ نشأتها حتى تمامها، ثم فجعهم غياب الرسول ﷺ والوحى ولكن إيمانهم ظل ثابتاً ثبات الدعوة الإسلامية.

(١) الطبقات الكبرى، محمد بن سعد كاتب الواقدى، ج٢، ص ٩٥.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- اروع ما قيل فى الرثاء، يحيى شامى، الطبعة الأولى، ١٩٩٢م، دار الفكر العربى، بيروت.
- أسد الغابة فى معرفة الصحابة، عز الدين أبى الحسن على بن أبى الكرم محمد بن عبد الكريم الشيبانى المعروف بابن الأثير، دار إحياء التراث العربى، بيروت، لبنان.
- الإصابة فى تمييز الصحابة، أحمد بن على بن حجر العسقلانى، دار صادر بيروت، ١٩١٠م.
- أضواء على الأدب الحديث، أحمد محمد الحوفى، طبعة دار المعارف بالقاهرة.
- الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، خير الدين الزركلى الطبعة السادسة، ١٩٨٤م، دار القلم للملايين، بيروت، لبنان.
- أعلام النساء فى عالمى العرب والإسلام، عمر رضى كحالة، مؤسسة الرسالة.
- إنسان العيون فى سيرة الأمين والمأمون المعروفة بالسيرة الحلبية، للإمام على بن برهان الدين الحلبى الشافعى وبهامشها السيرة النبوية والآثار المحمدية، أحمد زين المشهور بدحلان، المكتبة التجارية الكبرى بمصر.
- بهجة المجالس وأنس المجالس، لأبى عمر يونس بن عبد الله بن محمد بن عبد البر القرطبى، تحقيق محمد مرسى الخولى، الطبعة الثانية ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- تاريخ الأدب العربى العصر الجاهلى شوقى ضيف الطبعة الثامنة.

- تاريخ الرسل والملوك لأبى جعفر محمد بن جرير الطبرى، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، طبعة دار المعارف، سنة ١٩٧٩م.
- جمهرة أشعار العرب، لأبى زيد محمد بن أبى الخطاب القرشى شرحه وضبطه وقدم له الأستاذ على فاعور، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ/١٩٩٢م، دار الكتب العلمية، بيروت.
- الحياة والموت فى الشعر الجاهلى، مصطفى جياروك، نشر وزارة الثقافة والإعلام، العراق، بدون تاريخ.
- حياة الصحابة، محمد يوسف الكاندهلوى، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
- خاتم النبيين محمد ﷺ، سميح عاطف الزين، دار الكتاب اللبنانى، بيروت، لبنان، مكتبة المدرسة، ١٩٨٣م.
- دراسات فى الأدب العربى والتاريخ، محمد عبد الغنى حسن، الناشر الدار القومية للطباعة والنشر.
- الدر المنثور فى طبقات ربات الخدور، زينب بنت يوسف فواز، الطبعة الثانية، دار المعرفة، بيروت، لبنان.
- ديوان حسان بن ثابت، تحقيق: وليد عرفات، دار صادر بيروت، ١٩٧٤م.
- ديوان الخنساء، المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان.
- ديوان من الشعر العربى المختار، تأليف وجمع وترتيب إبراهيم السليمانى الطامى، مطابع المنار بالقصيم، المملكة العربية السعودية.
- ذهول العقول بوفاة الرسول ﷺ لأبى تراب الظاهرى الطبعة الأولى، ١٤٠٤هـ-١٩٨٣م دار القبلة للثقافة الإسلامية.

- الرثاء فى الجاهلية والإسلام، حسين جمعة، الطبعة الأولى، ١٩٩١م، دار معد للنشر والتوزيع، سورية، دمشق.
- الروض الأنف فى تفسير السيرة النبوية، لابن هشام لأبى القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد بن أبى الحسن الخثعمى السهيلى قدم له وعلق عليه وضبطه طه عبد الرءوف سعد، دار الفكر، بيروت.
- سمط النجوم العوالى فى أبناء الأوائل والتوالى عبد الملك بن حسين بن عبد الملك العصامى المكى، المكتبة السلفية.
- سير أعلام النبلاء للإمام شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبى حقق نصوصه وخرج أحاديثه وعلق عليه شعيب الأرنؤوط.
- السيرة النبوية لابن هشام حققها وضبطها وشرحها ووضع فهارسها مصطفى السقا، إبراهيم الإبيارى، عبد الحفيظ شلبى دار المعرفة بيروت، لبنان.
- السيرة النبوية لأبى الحسن على الحسن الندوى، الطبعة الثانية، صفر ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م، دار الشروق، جدة.
- السيرة النبوية الخالدة سيرة رسول الله ﷺ، محمد عبد المنعم خفاجى، الطبعة الأولى.
- شاعرات العرب جمع وتحقيق عبد البديع صقر، الطبعة الأولى، ١٣٨٧هـ/١٩٦٧م، منشورات المكتب الإسلامى.
- الشعر الإسلامى فى صدر الإسلام، عبد الله الحامد، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م، مطابع الإشعاع التجارية الرياض.
- شعر الدعوة فى عهد النبوة والخلفاء الراشدين، جمعه وحققه ووثقه وشرح غريبه وترجم لأعلامه ووضع فهارسه عبد الله بن حامد الحامد، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م، دار اللواء للنشر والتوزيع.

- شعر عصر صدر الإسلام من منظور التطور الإسلامى، محمد عادل الهاشمى، الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ/١٩٨٦م، مكتبة المنار، الأردن، الزرقاء.
- شعر فى رسول العالمين من غير أصحاب الدواوين، جمع وتحقيق محمد الأطرش، الطبعة الأولى، ١٤٢١هـ/٢٠٠١م، دار المعالى.
- شعر المخضرمين وأثر الإسلام فيه، يحيى الجبورى، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ/١٩٨١م، مؤسسة الرسالة، بيروت.
- الشعر والدعوة فى عصر النبوة، يوسف محى الدين أبو هلالة، النشرة الأولى، ١٤٠٨هـ، دار العاصمة الرياض.
- صور من سير الصحابيات عبد الحميد بن عبد الرحمن السيبانى.
- الطبقات الكبرى، محمد بن سعد كاتب الواقدى، دار الفكر العربى، مؤسسة مصرية للطباعة والنشر.
- العقد الفريد، أحمد بن محمد بن عبد ربه، دار الفكر، بيروت.
- العمدة فى محاسن الشعر وآدابه ونقده، لأبى الحسن بن رشيق القيروانى الأزدى، حققه وفصله وعلق على حواشيه محمد محى الدين عبد الحميد، الطبعة الرابعة، ١٩٧٢م، دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة، بيروت، لبنان.
- عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير، ابن سيد الناس، الطبعة الأولى، ١٩٧٧م، منشورات دار الآفاق الجديدة، بيروت.
- فنون الأدب العربى الفن الغنائى الرثاء، شوقى ضيف، الطبعة الثالثة، دار المعارف.
- فى موكب الدعوى محمد الغزالى، الطبعة الرابعة، ديسمبر ١٩٦٥م، دار الكتب الحديثة، ١٤ شارع الجمهورية عبدين القاهرة.

- القاموس المحيط، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزأبادى، طبعة الحلبى، مصر.
- قول على قول، حسن سعيد الكومى، الطبعة السابعة، ١٤٠٧هـ/١٩٨٦م، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، لبنان.
- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، لأبى القاسم حسين بن محمد راغب الأصبهانى.
- محمد رسول الله والذين معه، عبد الحميد جودة السحار، طبعة نهضة مصر.
- المدائح النبوية فى الأدب العربى، زكى مبارك، دار الكتاب العربى للطباعة والنشر، القاهرة.
- المرأة فى الشعر الجاهلى، أحمد محمد الحوفى، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة القاهرة،
- مسلمات خالدات، محمد عمر الداعوق، محمد على القطب، الطبعة الأولى، منشورات المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، لبنان.
- مسند الإمام أحمد، الطبعة الرابعة، ١٤٠٣هـ، المكتب الإسلامى، بيروت.
- معجم النساء الشاعرات فى الجاهلية والإسلام، عبدأ مهنا، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.
- منح المدح، أو شعراء الصحابة ممن مدح الرسول ﷺ أو رثاه، لابن سيد الناس، تحقيق عفت وصال حمزة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ، نشر دار الفكر، دمشق.
- الموسوعة العربية الميسرة بإشراف محمد شفيق غربال، الطبعة الثانية، ١٩٧٢م، دار الشعب ومؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر.
- نساء حول الرسول والرد على مفتريات المستشرقين، محمود مهدى الاستانبولى، مصطفى أبو النصر الشلبى، الطبعة الثانية، ١٤١٠هـ/١٩٩٠م، مكتبة السوادى للتوزيع، جدة.

- نساء ومواقف، فايز موسى أبو شيخة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م، مكتبة الفلاح، الكويت.
- النقد التطبيقى والموازنات، محمد الصادق عفيفى، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م، الناشر مؤسسة الخانجى بمصر.
- النقد المنهجى عند العرب منهج البحث فى الأدب واللغة مترجم عن الأستاذين لانسون ومييه محمد مندور، دار نهضة مصر للطبع والنشر، الفجالة، القاهرة.
- نهاية الأرب فى فنون الأدب، أحمد بن عبد الوهاب النويرى، نسخة وصوره عن طبعة دار الكتب المصرية فى القاهرة.
- النهج المحمدى، عبد العزيز المسند، النادى الأدبى، الرياض، ١٤٠٠هـ/١٩٨٠م.
- الوفاء بأحوال المصطفى، لأبى الفرج عبد الرحمن الجوزى، صححه ونسقه وعلق عليه محمد زهرى النجار المؤسسة العيدية بالرياض.